شرح أصول السُّنّة للحميدي، شرح السُّنّة للمزني

المجلس الأول

السلام عليكم ورحمة الله

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أمّا بعد

فهذان المختصران في العقيدة – أصول السُّنَّة للحُميدي، وشرح السُّنَّة للمُزَنيّ رحمهما الله تعالى – مِن مختصرات السلف الصالح رضي الله عنهم التي ذكروا فيها العقيدةَ بإجمال؛ دون توسُّع ودون عرْض مُطَوَّلٍ للأدلة، لأنّ طريقةَ السلف رحمهم الله تعالى في التصنيف تارةً تكون بالمختصرات التي يُبِيْنُ فيها الواحدُ منهم الاعتقادَ الحقَّ؛ الذي إذا وقع المخالفُ في ضده فإنه يكون مخالفًا للسُّنَّة، وذلك يقتضي أنه تَلَبَّسَ ببدعة، والمختصرات كثيرة، يعرضون فيها الاعتقادَ الحقَّ، ثمّةَ نوعٌ آخر منْ هذه الكتب؛ وهي الكتب التي سُرِدَ فيها الأدلة – أدلة الاعتقاد – مُطوَّلةً، فيروون فيها ما ثبت عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وما ورد عنه في أبواب الاعتقاد، وهكذا ما جاء عن الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

هذا النوع مِن الكتب مِن المفيد جدًا لطالب العلم أنْ يُلِمَّ به، وأنْ يَعرف ما فيه، لأنّ الذين سلفوا قبلنا مِن علماء الأمة – رحمة الله تعالى عليهم – نقلوا الاعتقادَ عمّن قبلهم، ومنْ قبلهم نقلوه عمّن قبلهم مِن الصحابة رضي الله عنهم، فطالب العلم يجد بَرْدَ اليقين وانشراح الصدر إذا عَلِمَ أنّ المعتقدَ الذي هو عليه مربوط بهؤلاء الأخيار مِن سلف الأمة الصالح – رضي الله تعالى عنهم –، ويعرف به بالغَ نعمة الله عزّ وجلّ عليه أنْ هداه لِمَا عليه سلف الأمة الكرام – رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم –، فإنّ الحقّ قد أخبر به عليه الصلاة والسلام أصحابَه، وأصحابُه قد عَلَّمُوه التابعين رضي الله عنهم، والتابعون أعلموا به أتباعَهم، وهكذا تسلسل – ولله الحمد والمنة –، ولا يزال الأمرُ كذلك، قال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تزال طائفة مِن أمتي على الحق»[1]، فالحق – ولله الحمد – لا يخبو ويضمحل وينتهي مِن هذه الأمة، يستمر حتى يأتي أمرُ الله عزّ وجلّ، وبعده يكون فناءُ هذه الدنيا.

(١) صحيح البخاري (٣٦٤٠) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مرفوعًا.

فمِنَ المفيد لطالب العلم أنْ يضبط أدلة الاعتقاد، وأنْ يعرف ما صُنف في هذا الباب، ولأجل ذلك أردنا أنْ نشرح هذين المختصرين – بإذن الله عزّ وجلّ–، وسنتوسع – إنْ شاء الله عزّ وجلّ – في عرض الاعتقاد هنا، لأنّ عبارات المصنفين في الكتب المختصرة ميسرة وقليلة محدودة، فيسهل أنْ يتوسع مَن أراد شرحَها، وهذا ما سيقع بإذن الله عزّ وجلّ في هذين الكتابين على خير، وعند شرح كل كتاب سنفترض أنّ هذا الكتاب – وهو كتاب المزنيّ رحمه الله؛ إذا انتهينا مِن كتاب الحميدي بعون الله – سنفترض أنّ طالبَ العلم لم يحضر؛ لأنّ هذا الكتاب سيُسَجَّلُ إنْ شاء الله تعالى ويُكتبُ شرحُه، وذاك كتاب آخر أيضًا إنْ شاء الله تعالى يُسجل ويُكتب شرحه، ويمكن أيضًا أنْ يحضر أحدٌ الدرسَ الأول ولا يحضر الثاني؛ والعكس، فلهذا إذا ذكرنا القدَر هنا عند الحميدي وتوسعنا فيه سنذكره مرة أخرى عند المزنيّ بإذن الله تعالى ونتوسع فيه، وفي ذلك فائدة التأكيد مِن جهة مَن حضر، وفائدة التنبيه مِن جهة مَن لم يحضر واحدة مِن الكتابين.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبيّنا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالديه ولمشايخه وللحاضرين ولجميع المسلمين.

قال الإمام عبد الله بن الزبير الحميدي رحمه الله تعالى:

السُّنَّة عندنا أنْ يؤمنَ الرجل بالقدَر خيره وشره، حُلوه ومُرّه، وأنْ يعلمَ أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنّ ذلك كلَّه قضاءٌ مِن الله عزّ وجلّ.

.....

بدأ رحمه الله تعالى بقوله: "السُّنَّة عندنا" السُّنَّة في هذا المقام يُراد بها الاعتقادُ، للفقهاء اصطلاحٌ، وللأصوليين اصطلاحٌ، ولعلماء العقيدة اصطلاحٌ – لكلمة السُّنَّة –، فإذا سمعتَ كلمةَ السُّنَّة في العقيدة فالمراد بها العقيدةُ التي مَن خالفها فقد ابتدع، وليس المراد بها السُّنَّة بمعناها المعروف – وهي ما يُثاب فاعلُه ولا يعاقبُ تاركُه! –، وإنما المقصود بها السُّنَّة التي خلافها البدعة، ثم هذا الخلاف للسُّنَّة – التي هي العقيدة – إمّا أنْ يكون خلافًا يوصل إلى الكفر – والعياذ بالله –، وإمّا أنْ يكون دون ذلك، لأنّ البدعة على نوعين: بدعة مكفرة، وبدعة غير مكفرة، ولهذا لاحظ أنه قال: "السُّنَّة عندنا أنْ يُؤمن الرجلُ بالقدَر" ليس المقصود

السُّنَّة التي يثاب فاعلُها ولا يعاقب تاركُها! لأنّ الإيمان بالقدَر – كما تعلم – ركن مِن أركان الإيمان، فمراده رحمه الله تعالى هنا السُّنَّة التي مَن خالفها فإنه مبتدع ما ستسمعُ مِن القدَر والإيمان وما يتعلق بالصحابة – رضي الله عنهم – إلى آخر أمور الاعتقاد التي سردها.

"أنْ يؤمن الرجل بالقدَر" القدَر معلوم أنه واحد مِن أركان الإيمان الستة، وهذا القدَر اعتدنا أنْ نقسم النصوص الواردة فيه إلى ثلاثة أقسام، حتى يعرف طالبُ العلم ما ورد مِن النصوص الواردة في القدَر؛ ويعلم أنّ هذه النصوص لا يُضَادُّ بعضُها بعضًا.

القسم الأول مِن النصوص: إثباتُ ما يتعلق بالرب سبحانه وتعالى، والمتعلِّقُ بالرب سبحانه وتعالى في القدَر هو مراتب القدَر الأربع: العلم والكتابة والمشيئة والخلق – على التفصيل الآتي –، إثبات ما يتعلق بالرب مِن الأمور الآتية:

أ- أنّ اللهَ تعالى عَلِمَ كلَّ شيء جملة وتفصيلًا.

ب- أنّ اللهَ تعالى كَتَبَ ذلك في اللوح المحفوظ.

ج- أنه لا يقع شيءٌ إلّا بمشيئة الله عزّ وجلّ.

د- أنه ما مِن شيء – كائنًا ما كان – إلّا والله تعالى خالقُه، فالله هو الخالق وما سواه تعالى مخلوق.

هذا يتعلق بالرب سبحانه وتعالى، وبه يُعْلَمُ أنّ الرب تعالى عَلِمَ الأشياءَ قبل أنْ تُوجد، وشاءها قبل أنْ تُوجد، فعَلِمَ سبحانه وتعالى أهلَ النار مِن أهل الجنة، وعَلِمَ سبحانه وتعالى الأشقياء مِن السعداء، هذا كلُّه متعلِّق بعِلْمِه سبحانه وتعالى، وهو الذي شاءه، وهو الذي سَبَقَ به كتابُه، إلى غير ذلك مِن المراتب التي ذكرناها.

النوع الثاني مِن أنواع النصوص الواردة بالقدَر: إثباتُ ما يتعلق بالعبد، ما تقدم كله يتعلق بالرب سبحانه وتعالى – مِن عِلْمِه وكتابته ومشيئته وخلقه –.

فما الذي يتعلق بالعبد مِن جهة القدَر؟ الذي يتعلق به أنّ ما تقدم ذِكْرُهُ في مراتب القدَر – المتعلقة بالله تعالى – لا يعني أنّ العبدَ خالٍ مِن المسؤولية! فليس له أنْ يَترك ما أوجب اللهُ؛ ولا أنْ يأتي ما حَرَّمَ الله، لأنّ القسمَ الأول مرتبط بالرب وإثبات ما للرب، الثاني مرتبط بالعبد، وليس ثمّة تناقض بين ما أثبتته النصوص

مِن سَبْقِ عِلْمِ الله تعالى وكتابته، فهذا مِن شأن الله تعالى، والعبد لا يدري به أصلًا، ولا يعلم بتاتًا ما الذي جرى به القدَر سابقًا، ما المتعلِّق به؟ المتعلِّق بالعبد هو الذي لأجله أرسل اللهُ الرسلَ – صلى الله عليهم وسلم – وأنزل الكتب؛ وأنه تبارك وتعالى امتحن العبدَ بالعمل ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

فالعبد وُجِدَ بعد أنْ جرت المقادير، هذا العبد أُرسلت له الرسل – صلّى الله عليهم وسلّم –، وأُنزلت له الكتب، وبُيِّنَ له الطريق، وحُذِّرَ مِن أمور، وأُمِرَ بأمور، فإذا ركب الطريق السليم – الذي جاءت به الرسل صلّى الله عليهم وسلّم – فقد سلك طريق السعادة، وإنْ عَكَسَ؛ فسلك الطريق المخالفة لِمَا أَمرتْ به الرسل فقد سلك طريق الشقاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[2] وَعْدٌ مِن رب العالمين سبحانه وتعالى؛ أنّ مَن سلك هذا الطريق الصالح السليم؛ فإنّ الله تعالى سيُيسره لليسرى، وأمّا مَن بخل واستغنى وكذب بالحسنى؛ فسنُيسره للعسرى، فالذي يركب الطريق المعاكس المخالف؛ فإنّ الله تعالى سيُولجه – والعياذ بالله – دارَ الأشقياء، ولهذا العبد المُوفَّق يعلم أنّ القدَر لا يمكن أنْ يكون سببًا في تَرْكِ الشرع، الشرع بأوامره ونواهيه هذا موجهٌ الكلامُ فيه للعبد، القدَر وما جرى وسبق هذا متعلق بالرب سبحانه وتعالى.

فالعبد ما الذي عليه؟ عليه أنْ يعمل وأنْ يلزم طريق الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ويسلك هذا الدرب الذي فيه النجاة، ويحذر الدرب الذي فيه الهلاك، ولهذا ثبت عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنّ الصحابة رضي الله عنهم سألوه لمّا جاء الكلامُ في أَمْرِ القدَر (يا رسول الله فِيْمَ العمل؟ أفيما جرتْ به الأقلامُ وجَفَّتْ به الصحف؟ أو فيما يُستقبل) يعني: هل قد كتب الله تعالى الأمورَ مسبقًا أم لا؟ فقال: (بل فيما جرت به الأقلام؛ وجفت به الصحف) قالوا: ففيم العمل؟ يعني: إذا كانت الأمور مكتوبة مسبقًا؛ ففيم العمل؟ قال صلّى الله عليه وسلّم: (اعملوا؛ فكلٌّ مُيسر لِمَا خُلِقَ له، أمّا أهل السعادة؛ فيُيسرون لعمل السعادة، وأمّا أهل الشقاوة؛ فيُيسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦)

(١) الملك: ١، ٢.

(٢) الليل: ٥ – ٧.

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[١]»[٢]، فمَن ركب الطريق السليم فإنه – بإذن الله تعالى وعونه وتوفيقه – سيسر أمره فيكون إلى طريق أهل الجنة، ومَن عَكَسَ فكذب بالحسنى؛ وبخل واستغنى؛ هذا درب لا يوصل إلّا إلى النار، لا يمكن أنْ يكون دربًا موصلًا إلى الجنة، فإنه يوصل أصحابه – إذا لقوا اللهَ تعالى عليه – يوصلهم إلى النار.

القسم الثالث مِن النصوص الواردة في القدَر: النهيُ والتحذيرُ عن المجادلة والمنازعة في القدَر، فإنّ المجادلة والمنازعة في القدَر منهي عنها بعدد مِن النصوص، ولابُدّ مِن التفريق في هذا المقام بين أمرين، الأمر الأول: الإيمان بالقدَر؛ هذا ركن مِن أركان الإيمان، لابُدّ أنْ تتعلم ما الذي تُحقق به الإيمان بالقدَر. الأمر الثاني: المجادلات والمنازعات الباطلة في أَمْرِ القدَر.

الإيمان بالقدَر على ما سمعت، هناك أمور تتعلق بالرب تؤمن بها، هناك أمور تتعلق بالعبد: تعْلَمُها وتمشي في ضوئها، وتعلم أنّ الاستمساكَ بالشرع لا يخالف القدَر! بل تؤمن بالقدَر وتعمل بالشرع، فإذا جعلتَ الشرع معاكسًا للقدر؛ فتقول: أنا لن أعمل بالشرع لأنّ المتعلِّق بالرب سبحانه وتعالى – بشأني – لا أدري به! فهذا هو المنهي عنه، وهو الذي مِن أجله نشأت فرقتان ضالتان في القدَر، وهما مِن أخبث فِرَقِ الضلال – وهما فرقة القدَريّة وفرقة الجبريّة –، وجاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أُخِّرَ النزاعُ في القدَر لشرار أمتي آخر الزمان»[٣]، قوله "أخر" وقوله "آخر الزمان" يدل على أنّ الصحابة رضي الله عنهم سالمون مِن الوقوع في هذه البدع – وهم كذلك ولله الحمد –، فالصحابة سالمون مِن البدع، وقوله "أُخِرَ النزاعُ في القدَر لشرار أمتي" هذا مِن علامات نبوته صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ هاتين الفرقتين الضالتين مِن أشرّ وأفسد الفِرَق، ومِن أكثر ما نَشَرَ في الأمة الشكوكَ والضلالات، مِن أشرّ فِرَق الأمة هاتان الفرقتان الخبيثتان، وكلمة "الجبريّة" ينطوي تحتها عدد مِن الفرق، وكلمة "القدَريّة" ينطوي تحتها أيضًا عددٌ مِن الفِرَق، فالقدَريّة هم الأوائل الذين كانوا ينفون مراتب القدَر الأربع، وأدركهم صغارُ الصحابة رضي الله

(١) الليل: ٥ – ١٠.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٤٨) من حديث عليّ رضي الله عنه بنحوه.

(٣) صحيح. الحاكم في المستدرك (٣٧٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (١١٢٤).

عنهم كابن عمر وابن عباس وأبي سعيد وأنس رضي الله عنهم، وفيهم الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وبدأ به في صحيحه – رحمه الله – حين سُئِلَ ابنُ عمر رضي الله تعالى عنهما عن قوم نشأوا في البصرة يَتَقَفَّرُون العلم – وهو نوع مِن التكلف والتعمق في تتبع العلم بطريقة على غير طريقة الصحابة – يزعمون أنّ الأمر أُنُفٌ وأنْ لا قَدَرَ! أنّ الأمرَ أُنُفٌ يعني – والعياذ بالله –: جديد مستأنف؛ وأنه لا يجري لله تعالى عِلْمٌ به، فقال ابنُ عمر رضي الله عنهما: (فإذا لقيتَ أولئك؛ فأعلمهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، وللذي يحلف به عبد الله لو أنّ أحدهم أنفق مثل أحد ذهبًا ما قَبِلَ اللهُ تعالى منه حتى يؤمنَ بالقدَر) ثم ذكر الحديث الطويل – حديث جبريل الذي رواه عمر رضي الله عنه – (بينما نحن جلوس عند رسول الله) إلى قوله لَمَّا سأل النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم عن الإيمان قال: «أنْ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ وتؤمن بالقدَر خيره وشره»[1].

فالواجب أنّ يُعْلَمَ أنّ مسائل الاعتقاد تُؤخذ مِن النصوص مباشرة؛ وأنّ مِن أشرّ ما يكون أنْ تُطْرَحَ فيها الشكوك، لأنّ هذه الشكوك هي التي أوجدت الفِرَقَ، أنت لو تتأمل الفِرَقَ الضالة تجد أنّ كل فِرْقَة نشأت مِن شبهة، كل فِرْقَة تجد أنها نشأت مِن شبهة، هذه الشبهة شبهة شيطانية صادفتْ أناسًا قلَّ عِلْمُهم وقلَّ إيمانُهم وتقواهم، فما الذي ترتب على ذلك؟ أنِ انضمَّ مجموعةٌ إلى هذا الذي نشر هذه الضلالة، وترتب عليها أنْ نشأ في الأمة هذه الفِرْقَة، وهذا كثيرٌ كثيرٌ في واقع الفِرَق – سواء الجهمية أو المعتزلة أو الرافضة أو الخوارج – تجد أنهم ينشؤون مِن شبهة، هذه الشبهة مِن آيات الله عزّ وجلّ البالغة أنها تنشأ بمعزلٍ عن العلماء، كلُّ هذه الفِرَق الضالة سواء في وقتنا هذا أو ما قَبْلَه أو زمن الصحابة رضي الله عنهم، أَمْرٌ عجيب للغاية، تجدُ أنّ الضلالات لا تنشأ إلّا بعيدًا عن العلماء، لأنّ العلماء يقمعون البدعة، حتى جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (والله إني لأحسب أنّ أحبَّ شيء إلى الشيطان موتي) فقيل له: كيف ذلك؟ قال: (تأتي البدعةُ مِن شرق الأرض؛ فتوصل إليّ فأقمعُها)[2]، يعني أنّ البدع تُقمع مِن قِبَلِ أهل العلم، الشيطان يحب أنْ تنتشر ولا تصل إلى أهل العلم، ولهذا يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في الرافضة يقول:

(١) صحيح مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي (٦١/ ١).

"مذهبهم لا ينشأ إلّا في الأطراف والبوادي"(١)، الغالب على مِثْلِ هذه الفِرَق أنها تنشأ في مكان بعيد، فلمّا اشتدتْ غربةُ الدين في هذا الزمن وصارت حتى المدن – مثل الأطراف والبوادي في السابق – انتشر مذهبُ الرافضة، وإلّا فإنه مذهب مقموع على امتداد التاريخ – قليلٌ مَن يدخل فيه –، فلما اشتد الضعفُ العلميُّ؛ واشتدت الغربة؛ نشأ للرافضة هذه الأقوال ونشأ لهم هؤلاء الأتباع.

الحاصل أنّ القسمَ الثالث مِن هذه النصوص يتعلق بنهي النبي صلّى الله عليه وسلّم الشديد عن الخوض بالباطل والمنازعة الباطلة في القدَر، فإنّ القدَر – كما قال الإمام أحمد –: "هو قدرة الله عزّ وجلّ"(٢)، والخوضُ في القدَر في الباطل معناه أنه خوض فيما يتعلق بالله عزّ وجلّ، والرب سبحانه وتعالى ليس محلًّا لخوض الخائضين وتخرُّص المتخرصين، وإنما الرب سبحانه يُعَرِّفُ بنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلّى الله عليه وسلّم، فليس فيما يتعلق بعِلْم الرب إلّا الكتاب والسُّنَّة، إذا علمتَ الآن هذه الأقسام الثلاثة مِن النصوص علمتَ أنّ أهلَ السُّنَّة – ولله الحمد – أثبتوا ما يتعلق بالرب، ولم يتصوروه مخالفًا للقسم الثاني المتعلق بالعبد! بل هذا له مجال مِن النصوص، والنصوص مِن القسم الثاني لها مجال، يأتي القسمُ الذي فيه الوعيد الشديد مِن الخوض في القدَر ووقع في زمن الصحابة – زمن النبي صلّى الله عليه وسلّم – أنْ تناقش بعضُ الصحابة رضي الله عنهم في مسألة القدَر – وهذا نادر جدًا –، فقابل النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم ذلك بغضب شديد، في اللالكائي وأحمد وغيرهما – في مجموع متن الحديث – أنّ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا اختلف بعضُ أصحابه في أَمْرِ القدَر؛ يقول: هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية، يعني هذا ينزع بآية مِن القسم الأول المتعلق بالرب وهذا ينزع بآية مِن القسم الثاني المتعلق بالعبد، مع أنّ القسمين – كما قلنا – ليس بينهما تعارض، فخرج صلّى الله عليه وسلّم مغضَبًا، يقول الراوي: "كأنما يُفقأ في وجهه حبُّ الرمان" مِن شدة احمرار وجهه صلّى الله عليه وسلّم؛ قال: «مهلا يا قوم! بهذا أُهلكت الأمم مِن قبلكم؛ باختلافهم على أنبيائهم، وضرْبِهم الكتبَ بعضها ببعض، إنّ القرآن لم ينزل ليكذب بعضُه بعضًا! بل يُصَدِّقُ بعضُه بعضًا»، يعني هذا النوعُ مِن المنازعات يُظهر كأن ثمّة آيات متصادمة مع آيات أخرى؛ وليس الأمر كذلك، بل هذه

(١) يُنظر: منهاج السنة النبوية (٦/ ١٧٩).

(٢) أخرجه الخلال في كتاب (السُّنَّة) (٥٤٤/ ٣).

الآيات – كما قلنا – مِن القسم الأول لها معنى لا يصادم المعنى الذي في القسم الثاني، «إنّ القرآنَ لم ينزل ليكذب بعضه بعضًا؛ بل يُصَدِّقُ بعضُه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به؛ وما جهلتم فكِلُوه إلى عالمه»[1]، الذي يُعرف ويتبين؛ فإنه يُعمل به، الذي تجهله فإمّا أنْ يكون مما يُرَدُّ إلى أهل العلم فيُعْلِمُوك به، وإمّا أنْ يكون مما استأثر الله تعالى به فإنك تَكِلُهُ إلى عالمه سبحانه وتعالى، فالنزاع في القدَر أَمْرُه خطير للغاية وهو مِن سُبُلِ التشكيك الشديدة للناس، ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يشددون جدًا على ما يمكن أنْ يتسبب قولُه في شيء مِن الباطل وإزاغة الناس، وثبت أنّ عمرَ رضي الله تعالى عنه ضرب صَبِيْغ بنَ عِسْلٍ ضربًا شديدًا حتى أدماه، لأنه كان يسأل عن متشابه القرآن، يأتي إلى أشياء ويطرحها في الناس فيؤدي ذلك إلى شيء مِن الشكوك والخصمة بين الناس؛ وأنْ يبدأ الناس في حال مِن البلبلة في اعتقادهم؛ فترتبَ على هذا أنْ ضربه رضي الله عنه ضربًا مبرحًا شديدًا، فقد أعدَّ له عراجين المدينة – عراجين النخل – ثم أَمَرَ ألّا يكلمه أحد، فحبسه في وسط الناس، أَمَرَ ألّا يكلمه أحدٌ نهائيًا، فكان يدخل المسجد فيها الحلقة العظيمة؛ فإذا أتاهم قاموا وتركوه، يذهب إلى حلقة أخرى فتناديهم حلقة: عزمة أمير المؤمنين – يعني عزم أمير المؤمنين أنْ يُهجر هذا الرجل –، حتى جاء إلى أبي موسى رضي الله عنه وأظهر توبتَه وإقلاعَه؛ فكتب أبو موسى رضي الله عنه وأرضاه بذلك لعمر فكتب عمرُ في مجالسته.[2]

الحاصل أنّ المشكك للناس في ربهم تعالى أو في مسائل دينهم؛ فالواجب أنْ يُمنع بالقوة وأنْ يُعلم أنّ هذه المسائل ليست مسائلَ خاضعة لأهواء الناس؛ وأنها مسائل جاء الشرع فيها بمنع الخوض فيها، الشرع في هذه المسائل المتعلقة بالرب يجعل الحرية تَسَيُّبًا وفوضى، انظر ماذا فعلتِ الحرية الهمجية في بلاد الغرب، أوصلتهم إلى أنْ يعبدوا الشيطان – نسأل الله العافية – عبدوا الشيطان! وهل بعد عبادة الشيطان شيء؟؟ الشيطان لم يَطمع أنْ يُعبد في الجاهلية العربية، وصل الأمر إلى أنْ عُبِدَ الشيطان، وجدت منظما في آسيا وقالوا لك: إنّ القانون يحمي هذه المنظمات التي تعبد الشيطان! قبحه الله مِن قانون، وأخزى الله مَن ينشر في أمة

(١) صحيح. مسند أحمد (٦٧٠٢) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر رحمه الله.

(٢) يُنظر: الشريعة للآجريّ (١/ ٤٨٤)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٤/ ٧٠٣).

محمد صلّى الله عليه وسلّم أفكار أعداء الله ممّن قال الله فيهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(١)، أناس تاهوا وضاعوا لا يعرفون مَن خلقهم ولا يعرفون لماذا خُلِقوا، وهم على حال مِن الضياع والهلكة، وفي حال مِن العذاب الأليم في الدنيا قبل الآخرة، حال مِن التذبذب والتردد، وانتشار الأمراض النفسية المستعصية، وانتشار أعداد المنتحرين على هيئة يَعلم مَن بَصَّرَه اللهُ تعالى أنْ الله قد عاقبهم عقوبة في الدنيا قبل الآخرة، إنّ التَسَيُّبَ في العقيدة يترتب عليه هذا، كما أنّ التَّسَيُّبَ في الأعراض – الذي هو موجود عندهم – ترتب عليه هذه الأمراض التي نشأت؛ وأبناء الزنى – والعياذ بالله – حتى بلغوا مبالغ عجيبة في الإحصاءات، نعم هكذا الأنظمة الفاجرة الفاسدة، فلهذا الشرع حينما يمنع أمورًا كهذه يمنعها لِمَا فيها مِن فساد الدين والدنيا معًا، فالرب ليس فكرة تُتداول بين الناس! الاعتقاد في الرب كتاب وسُنَّة، ولا يُعلم فيما يتعلق في الرب سبحانه وتعالى إلّا بما فطر عليه عباده سبحانه وتعالى مِن كونه ربهم وبالتفاصيل التي جاء بها رسل الله صلّى الله عليهم وسلّم، وليس لأحد أنْ يتجاوز هذا، ولهذا قال رحمه الله تعالى: "أنْ يؤمن الرجل بالقدَر خيره وشره" وقوله هنا "الرجل" ينبغي أنْ يُعلم أنه في كلام العرب كثيرًا ما يقولون: الرجل، فليس المقصود إخراج المرأة! يعني أنْ يعتقد الرجل دون المرأة! لا، إنما كما يُعبّر دائمًا المرء؛ الرجل؛ ونحو ذلك، لكنْ يدخل في هذا بلا شك كلُّ مكلف مِن ذكر أو أنثى؛ ومِن إنس ومِن جِنّ، كلُّ هؤلاء يدخلون فيما أوجب الله مِن اعتقاد.

"أنْ يؤمن الرجل بالقدَر خيره وشره" دلَّ على أنّ القدَر فيه خيرٌ وفيه شرٌّ، كما في حديث جبريل «وأنْ تؤمن بالقدَر خيره وشره»(٢) مِن الله تعالى، فالقدَر فيه خير، مثل أنْ يكون في الناس شيءٌ مِن البسطة في الرزق والأمن في الأوطان والصحة في الأبدان مع طاعة لله عزّ وجلّ مع طاعة لأمره، هذا لا شك في أنه مِن الخير الذي جَمَعَ خيرَ الدنيا والدين، وهو متبوع بخير الآخرة، إذا كان على هذا الحد فإنه يكون جامعًا لخيري الدنيا والآخرة وخير الدين.

(١) الفرقان: ٤٤.

(٢) صحيح مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعًا.

"وشره" القدَرُ فيه شرٌّ، لكنْ الشرُّ ينبغي أنْ يُعلم في القدَر ما المراد به؟ الشرُّ مَن قدره؟ قدَّرَه الله بلا أدنى شك، لأنه لا يقع تحريكة ولا تسكينة إلّا بمشيئة الله عزّ وجلّ، لكنّ تقديرَ الله تعالى للشرّ ـ هو مِن جهة استحقاق المكان لأنْ يقع عليه الشرّ، وتقدير الله لهذا الشرّ حكمةٌ بالغة منه عزّ وجلّ، ولهذا ينبغي أنْ يُعلم المرادُ بحديث «والشرّ ليس إليك»(١)، النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «والشرّ ليس إليك» ولم يقل: "والشر ليس منك"، بل القدَر – خيره وشره – مِن الله عزّ وجلّ، لهذا قال: «والشرّ ليس إليك» يعني أنّ الله تعالى لا يُقدر الشرّ عبثًا! وإنما يقدره سبحانه وتعالى لحكمة بالغة، نموذج ذلك: إذا تأملتَ ما يتعلق بالنصر ـ في بدر فهذا خير، لأنّ المكان مهيأ للنصر، اتقوا الله عزّ وجلّ وأطاعوا نبيّه صلّى الله عليه وسلّم فأمدهم الله تعالى بالنصر، ما الذي حصل في أحد؟ حصل هزيمة، وسمّاها الله بنص القرآن بالمصيبة فقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾(٢) أي كيف يقع هذا؟؟ كيف نُغلب؟؟ فينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونحن مسلمون وهم كفار؟؟ فأجابهم رب العالمين: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ يعني يوم بدر أصبتم قَتْلَ سبعين وأَسْرَ سبعين؛ وأصابكم يومَ أحد أنتم قَتْلُ سبعين فقط ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(٣) يعني بسببكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤) يعني أنّ الله هو الذي قَدَّرَه وقدَّر كل شيء، لكنْ لِمَ قدره؟ بسببكم، لذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: بسببكم وأنا الذي قدَّرْتُه عليكم – كما بَيَّنَ السلف –، وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٥) يعني أنّ الله تعالى هو الذي قَدَّرَ ما أصيبوا به، لكن لِمَ؟ لأنه عصوا رسول الله – تحديدًا الرماة – رضي الله عنهم وغفر الله لهم، النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وضعهم على جبل وقال: «لا تبرحوا مكانكم؛ وإنْ رأيتم الطير تتخطَّفُنا، لا تبرحوا مكانكم حتى أُرسل إليكم، إنْ رأيتموهم غلبونا فلا

(١) صحيح مسلم (٧٧١) من حديث عليّ رضي الله عنه مرفوعًا.
(٢) آل عمران: ١٦٥.
(٣) آل عمران: ١٦٥.
(٤) آل عمران: ١٦٥.
(٥) آل عمران: ١٦٦.

تُعينونا»[1]، فالرماة رضي الله عنهم ما عصوا عصيان المتعمد! وإنما وقع منهم رضي الله عنهم ما وقع على سبيل التأول، لأنهم يقولون: إنّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أمرنا أنْ نلزم هذا المكان لَمَّا كانت الحربُ قائمة؛ أمّا وقد ولّى العدو وانتهتِ الحرب فالنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم ما أراد ذلك مِنّا! وإنما أراد صلّى الله عليه وسلّم منا أنْ نبقى في أماكننا هذه حتى تنتهي الحرب؛ فقد انتهتِ الحرب، فرأوا رضي الله عنهم أنّ الأمرَ النبويّ كان موقتًا بهذا، رأى المشركون موضعَ الرماة قد خلا فأتوا مِن نفس الموضع – وهو الذي جَعَلَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم الرماةَ عليه حتى لا يقع هذا مِن المشركين – فقَدَّرَ اللهُ تعالى أنْ وقعتِ المصيبةُ التي قدَّرَها سبحانه وتعالى، وكاد رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ يُقتل لولا حِفْظُ الله تعالى له، ووقعت مصيبة كبيرة على المسلمين بقتل سبعين، ولكنّ الله تعالى سَلَّمَ وعافى، ولم يقع ما كان في نفوس الكفار مما أرادوه وسعوا إليه بكل ممكن – وهو قَتْلُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم –، لكنّ اللهَ تعالى حال بينهم وبين ذلك، ولهذا الشرُّ هو بالنسبة إلى الموضع، قال أهل العلم: مثاله قَطْعُ يد السارق، السارق إذا قُطعت يده لا شك أنّ الألم وإبانة كفِّه بالنسبة له شرٌّ وألمٌ، لكنْ مِن جهة كون هذا الحكم الشرعي واقعًا موقعه فهو خير، فالحُكْم مِن الله – وهو الذي قَدَّرَه على هذا السارق سبحانه وتعالى – فهو بالنسبة للمحل وللموضع يؤلم بلا شك صاحبَه وتَبِيْنُ منه يدُه ويبقى بلا يد؛ لا يشك أنّ هذا بالنسبة له ضررٌ، لكنْ مِن جهة أنّ هذا حقٌّ وقع موقعَه؛ وأنه عَدْلٌ؛ وأنّ الواجبَ إنفاذُه هذا مِن جهة الله عزّ وجلّ لا شك أنه خير، فالله لا يُقَدِّرُ الشر عبثًا! وإنما يُقَدِّرُ الشرّ – سبحانه وتعالى – حكمة، ما فائدة تقدير الشرّ؟ هناك فائدة كبيرة جدًّا للأمة كما قال عزّ وجلّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ ما السبب في ظهور هذا الشر؟ ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ فهل لربي حكمة في هذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، إذا سَلَّطَ اللهُ عليهم واشتدتْ عليهم المصيبةُ وتوالت عليهم النكبات – مثل وضْعِ الأمة الآن – فإنهم يرفعون رؤوسهم إلى ربهم؛ هل مِن سبيل إلى الخلاص؟ نعم، ارجعوا إلى ربكم سبحانه وتعالى، هذه حكمة رب العالمين في التقدير، ولكنْ لِعِلْمِك تقديرُ الله عزّ وجلّ فيه لُطْفٌ عظيم جدًا حتى بالعقوبات، يعني هذا الوضع الذي

(١) صحيح البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) الروم: ٤١.

فيه المسلمون لولا لُطْفُ الله تعالى بالمسلمين لكان أشد مما هو أضعافًا مضاعفة، فمِن لُطْفِ الله تعالى أنّ هذا الحال الذي فيه الأمة – على ما فيه مِن المشقة والصعوبة لولا لطف الله – لكان أشد مِن هذا بكثير، لأنّ لله تعالى في تقديره ألطافًا سبحانه وتعالى، وإلّا فالأمة تستحق الأشد والأكثر بلا ريب، لكنّ الله تعالى يُقدر ويلطف سبحانه وتعالى، هذا الوضع عُلِمَ مما وقع في أحد ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾[1] هذا يقال للصحابة رضي الله عنهم وفيهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى تعلم الأمةُ إلى قيام الساعة أنّ المعاصي عاقبتها وخيمة، وأنّ السبب الحقيقي في حال الأمة هو في مخالفتها لِأَمْرِ الله عزّ وجلّ في الاعتقاد أو في الشرع، في الاعتقاد بالبدع والضلالات والخروج على نهج أهل السُّنَّة، أو في الشرع بعدم تطبيقه كما ينبغي، أو في المعاصي التي تكون بين الناس، ولهذا تجد المصائب في بعض الأحيان تتسلط على العبد وتتوالى وتكثر تنبيهًا، وهذا أفضل له مِن أنْ يوافيَ يومَ القيامة فيجد هذه النعم قد قَلَّ شكرُها؛ وهذه الذنوب قد تواردت عليه سنين طويلة فيُعاقَب عليها، فإذا أراد الخلاص؛ أين الطريق؟ عُدْ إلى الله عزّ وجلّ، فهذا للأمة عمومًا ولكل فرد في خاصة نفسه ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2] فإذا رجعوا إلى ربهم تبارك وتعالى فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾[3]، ثم لا تُفكر تفكير مَن لا يفقهون؛ عند الكفار أسلحة نووية! وعندهم ترسانات عسكرية! عندهم جيوش مدججة! إذا شاء الله جعلها وبالًا عليهم، وجعلها عليهم أشرّ مِن كل شرّ، أليسوا تحت تصرف رب العالمين؟؟ أليس قادرًا سبحانه وتعالى أنْ يجعل كيدهم عائدًا إلى نحورهم؟؟ لا تتحدث بمثل هذا الأسلوب، هذا الأسلوب في أصله لا يتحدث به المؤمنون أصلًا، وإنما المؤمن المتوكل على ربه يُصلح ما بينه وبين الله ويُعِدُّ العُدَّةَ التي أوجب الله؛ ثم البقية لا يسأل عنها أبدًا، لكنّ الإشكالَ إذا كان الإشكال في الأمة مِن الداخل وتريد النصر! لا يمكن هذا، لابُدّ أنْ تعودوا إلى نصر رب

(١) آل عمران: ١٦٥.

(٢) الروم: ٤١.

(٣) محمد: ٧.

العالمين، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾(١) الله تعالى ليس بحاجة لأحد أنْ ينصره، بمعنى أنه تعالى يستكثر بهم مِن قِلّة أو يتقوى بهم مِن ضعف! إنما نصرُ الله تعالى بإقامة حُكْمِه وأَمْرِه سبحانه وتعالى – سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات –، وكثيرًا ما يُتحدثُ عن إقامة حُكْمِ الله تعالى على مستوى الجماعات والدول والشعوب، وهذا حق وواجب على الحكام، وهذا أكبرُ واجبات الحكام، لكنْ انظر أولًا إليك أنت؛ وإلى إقامتك أنت شَرْعَ الله وحُكْمَه ودينه سبحانه وتعالى في نفسك وفيمَن تحت يدك مِن ذريتك وفي وسط بيتك، هل أقمتَه كما ينبغي؟ هذا كلُّه متوجِّب على الجميع، والتوبة لمّا ذكرها الله تعالى قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢) التوبة ليست خاصة بأحد دون أحد، وإنما هي واجبة على الجميع، ولهذا لو تتأمل في صفوة الناس اليوم وفي أهل الدين وفي أهل الخير – الذين يظهر عليهم الصلاح – تجد العجب العجاب – فضلًا عن العصاة –، تجد تخلفًا عن الصلاة ولاسيما مثل صلاة العصر والفجر، تجد في هذه الجوالات العجائب والغرائب، أناس مِن أهل الدين والخير والصلاح جوالاتُهم مليئة بالصور، ما حُكْمُ النظر إلى صور النساء؟ ما في أحد يجهل أنّ صورَ النساء محرمة، أناس مِن أهل العبادة والصلاح والخير مليئة جوالاتُهم بهذا، ويأتيهم الشيطان يقول: تريد أنْ تنقطعَ عن الأرض؟؟ انظر مَن حولك مِن أخبار وأحوال الناس، يأتي الشيطان مِن باب آخر يقول: إخوانك المسلمون اللاجئون والضعفاء والمساكين؛ هؤلاء كيف تعرفهم؟ حتى تتفرج عليهم! انظر إلى عبث الشيطان بأهل الدين – فضلًا عن غيرهم والله المستعان –، كأنك لن تنفعَ الأمة حتى تعصيَ الله عزّ وجلّ، وهكذا الأخبار حدِّث، قناة كذا قناة خبيثة فيها كذا وكذا! ما شاء الله، مِن أين أتتك هذه المعلومات؟ تتابعها؛ وأنت ذو دين وصلاح وعِلْمٍ؛ يخفى عليك أنّ هذه القنوات نتنة قذرة عفنة، يقوم عليهم ناسٌ مِن أهل الليبرالية والعفن والفساد، يلعب في القلب لعبًا مِن صور النساء الفاتنات والشُّبَه والضلالات، كيف تدخل هذا بيتك؟؟ كيف تتحدث وتجهر بمثل هذا – وأنت رجل مِن أهل الخير وربما كان مِن أهل العلم –، إذا تأملتَ؛ وضعُ كثيرٍ مِن خاصة المسلمين – والله المستعان –على هذا الوضع، الرب تبارك وتعالى حَكَمٌ عَدْلٌ لا يُقَدِّرُ إلّا لحكمة بالغة، فإذا

(١) محمد: ٧.

(٢) النور: ٣١.

عاد الناس إلى ربهم تعالى العودَ الحميدَ وتركوا عنهم مثلَ هذه الحيل الشيطانية والألاعيب التي جعلها الشيطانُ لَمن قَلَّ نصيبُه مِن الوعي والفهم؛ فإنّ الله تعالى يعود عليهم بالنصر، أمّا والإنسان يظهر منه هذا ويجاهر به – وهو مِن أهل الخير! – فلا تعجب إنْ صار أَمْرُ الأمة إلى هذا، ووالله لولا الله ولطفه سبحانه وتعالى كان الوضع أشد بكثير، يعني أنّ الذي يُستحق أشدُّ بكثير، لكنْ لُطْفٌ مِن اللطيف الخبير سبحانه وتعالى أنْ يجعل الأمور على هذا النحو الذي تراه.

حاصل الأمر أنّ القدَرَ خيرُه وشرُّه؛ حلوه ومُرُّه كله مِن الله تبارك وتعالى لحكمة بالغة يعلمها علّام الغيوب.

قال: "وأنْ يَعْلَمَ أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه" ما أصابه يعني مِن خير أو شرّ، كلُّ ما أصابك ووقع فمِن المحال أنْ يخطئك ولا يتحقق، وعكسُه ما أخطئك وفاتك ولم يتحقق لك؛ أو سلمك الله تعالى مِن شَرّ وغيره؛ فإنّ مِن المحال أنْ يصيبك – ولو كنت في الموضع الذي يقع فيه هذا الأمر –، لا يمكن أنْ يصيبك شيء إلّا بإذن الله ولا يمكن أنْ يفوتك شيء إلّا بإذنه تعالى، ولهذا قال: "وأنّ ذلك كله قضاء مِن الله عزّ وجلّ"، هذا مُجمل ما يقال في الأمر الأول الذي بدأ به – وهو أَمْرُ القدَر –.

قال رحمه الله: وأنّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ، يزيد وينقص، ولا ينفع قولٌ إلّا بعمل، ولا عمل وقول إلّا بنيّة، ولا قولٌ وعملٌ ونيّةٌ إلّا بسُنّة.

.....

ذَكَرَ رحمه الله تعالى المسألة الثانية – وهي مسألة الإيمان –، والإيمان عند أهل السُّنَّة – كما ذَكَرَ رحمه الله تعالى – قول وعمل، ينبغي أنْ يُعرف المرادُ بقول السلف "الإيمان قول وعمل"، مرادهم بكلمة قول هنا شيئان، قول اللسان – وهو نطقه –، وقول القلب – وهو اعتقاده –، لأنّ القلبَ يقول – كما أنّ اللسان يقول –، فقول اللسان هو نطقه وهذا معروف، فما المراد بقول القلب؟ اعتقاده، هذا هو المراد، قول وعمل، ما المراد بالعمل؟ العمل يُراد به أيضًا شيئان، عملُ الجوارح المعروف مِن سجودك وطوافك بالبيت وغيره هذه أعمال الجوارح، وعَمَلُ القلب كمحبة الله عزّ وجلّ وخشيته ورجائه والتوكل عليه، فتارة يقولون: قول

وعمل؛ فيُجْمِلُون العبارة، وتارة يُفصلون فيقولون: قول باللسان واعتقاد بالجنان – أي القلب – وعمل بالجوارح والأركان، يزيد وينقص، القسم الأول في قوله "الإيمان قول وعمل" يسميه أهلُ العلم حقيقةَ الإيمان، يعني ما حقيقة الإيمان؟ مسائل الإيمان الكبار ثلاث، مسائله الكبار ثلاث، الأولى: حقيقته وهو أنه قول وعمل، الثانية: أنه يزيد وينقص، وهي التي ذكرها هنا – هذه الثانية –، الثالثة: الاستثناء في الإيمان، بأنه إذا سُئِلَ هل أنت مؤمن؟ فيقول: إنْ شاء الله؛ ولا يزكي نفسه جزمًا، هذه مسائل الإيمان الثلاث، الإيمانُ قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، يبقى أمرٌ مهم للغاية في موضوع الزيادة والنقصان، الزيادة والنقصان هل ترتبط بالقلب أو الناس في أمر القلب سواء؟ لاشك أنّ الزيادة والنقصان مرتبطة بالقلب أيضًا، يعني مِن المعلوم والأمور المؤكدة أنّ تفاوتَ الناس في العمل هذا واضح، يعني إنسان صام اليوم وتصدق وصلّى على الجنازة وعاد مريضًا ووصل رحمًا وقرأ مِن القرآن جزءًا؛ هذا أكثر عملًا، عند الجميع هذا أكثر ممّن لم يصم اليوم ولم يتصدق بشيء ولم يقرأ مِن القرآن شيئًا، معلوم هذا التفاوت في العمل واضح، لكنّ التفاوت حتى في قوة التصديق، فالتصديق يشترك فيه الأنبياء والملائكة وعموم المؤمنين، لكنّ درجة تصديق الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ودرجة تصديق الملائكة – عليهم الصلاة والسلام – درجة لا يبلغها أحد، ولهذا قال ابن أبي مليكة – كما في البخاري –: "أدركتُ ثلاثين مِن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كلهم يخاف النفاق على نفسه" يعني يخاف الرياء وليس النفاق الأكبر "كلهم يخاف النفاق على نفسه؛ ما منهم مِن أحد يقول: إيماني كإيمان جبريل وميكائيل!"[1] لا يزكون أنفسهم إلى أنْ يصفوا حقيقة إيمانهم بأنه كإيمان جبريل وميكائيل، ولهذا الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وهذا الأمر يعرفه الإنسان حتى مِن نفسه، فتجد أنك في بعض الأحيان أكثر إقبالًا على الطاعة، تجد أنك أكثر إقبالًا على الطاعة، وأنّ قلبك أعظم في خشوعه، كما يحدث في بعض الأحيان، في رمضان أو عندما تقرأ آية ويتحرك لها قلبك وتخشع ونحو ذلك، قد قرأت هذه الآية في ختمة سابقة ولم يتحرك لها

(١) رواه البخاري (١٨/ ١) تعليقًا، ووصله الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه (فتح الباري) (١١٠/ ١) عن ابن أبي خيثمة في تاريخه، ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الإيمان له.

قلبك، ما الفَرْقُ؟ الفَرْقُ في موضوع الزيادة والنقصان، والشيء القابل أصلًا للزيادة هو قابل للنقصان؛ لأنه قبل الزيادة كان ناقصًا.

ثم قال رحمه الله: "ولا ينفع قول إلّا بعمل" هذا رَدٌّ على المرجئة، المرجئة يُخرجون العمل، تتفق طوائف المرجئة على إخراج العمل مِن حقيقة الإيمان، ثم منهم مَن يقول: "إنّ الإيمانَ قولٌ باللسان واعتقادٌ بالقلب" – كما هو قول مرجئة الفقهاء –، ومنهم مَن يقول: "إنّ الإيمانَ هو الاعتقادُ فقط ولو لم يكن هناك نُطْقٌ باللسان"، ولهذا قال رحمه الله مبينًا بطلان قول المرجئة: ولا ينفع قول – بأنْ يظهر الإسلام بلسانه – إلّا إذا عمل، أمّا إذا تَرَكَ العمل ولم يعمل أيَّ عمل؛ فإنّ الشافعيَّ رحمه الله تعالى – وهو إمام كبير جدًا – وقد نَقَدَ رحمه الله تعالى مَن ينقلون الإجماعَ بلا تروي، هذا الإمام نقل عنه شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى أنه حكى إجماع الصحابة والتابعين ومَن بعدهم قال: "ومَن أدركنا؛ أنّ الإيمان قول وعمل ونية لا يُجزأ واحدٌ منها دون الآخر"(١)، يعني مَن اقتصر على القول وحده لم ينفعه، مَن اقتصر على القول والاعتقاد لم ينفعه، ولا ينفعُه إلّا أنْ يأتي بالأمور الثلاثة مجتمعة، ولهذا هل العمل شرط أو ليس بشرط؟ ما هذا الإطلاق؟؟ مِن أين أتى هذا الإطلاق؟؟ الشرط خارج الماهية، عندنا شروط الصلاة، شروط الصلاة ليست مِن صُلْبِ الصلاة، هذه أركان الإيمان تُسمى، أركانه مكونة مِن هذه الأركان الثلاثة، أنه قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعَمَلٌ بالجوارح والأركان، هذه حقيقة الإيمان، ولهذا قال الشافعي رحمه الله في إجماع الصحابة والتابعين ومَن بعدهم: "لا يُجزأ واحد منها دون الآخر" ومعلوم عند الجميع أنّ مَن قال بلسانه وعمل بجوارحه – وهو لم يعتقد – أنه لا ينتفع – عند الجميع – لأنه منافق، يظهر القول والعمل وحقيقته فاسدة في قلبه؛ وأنّ مَن عمل في الظاهر وكان قلبه – بزعمه – منطويًا على الاعتقاد الحق لكنه أبى أنْ ينطق؛ فإنه لا ينفعه حتى ينطق، فما الذي أخرجَ العمل إذن؟؟ لماذا يقال: إنه إذا نطق بلسانه واعتقد بقلبه ولم يعمل أنه يكون مؤمنًا! ما هنالك فائدة إذن مِن قولك: قول واعتقاد وعمل! فإنه إذا قلت: إذا ترك العمل فإنه يكون مؤمنًا! فإنّ حقيقة الإيمان عندك – وأنت لا تشعر – قول واعتقاد! لأنه لم يَعُدْ للعمل عندك أيّ معنى، ولهذا حكى الشافعي رحمه الله إجماع الصحابة والتابعين ومَن بعدهم على أنّ هذه الأمور الثلاثة مجتمعة لا ينفع واحد منها دون الآخر،

(١) يُنظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٠٩).

لابُدّ مِن هذا، فالحاصل أنّ الأمر كما قال رحمه الله: "ولا ينفع قول إلّا بعمل" وهكذا لا ينفع قول واعتقاد إلّا بعمل، فلو زعم أنه يعتقد ونطق بلسانه وأبى أنْ يعمل؛ فإنه لا ينفعه، ولهذا قال في بقية كلامه: "ولا عمل وقول إلّا بنية" وهذا توضيح على أجلى ما يكون، كما أنه لا ينفعه أنْ يعمل في الظاهر وينطق الشهادتين إذا كان فاسد النية والقصد وليس بمخلص! هذا لا ينفع عند الجميع، قال: فكذلك لا ينفع القول إلّا بالعمل، هذه هي حقيقة الإيمان، واضبط هذه المسألة، مَن عرف معنى الإيمان عرف معنى الكفر، ومَن عرف معنى التوحيد عرف معنى الشرك، فإنْ خلَّط في معنى الإيمان لابُدّ أنْ يُخَلِّطَ في معنى الكفر، وإنْ خلّط في معنى التوحيد لابُدّ أنْ يُخلّط في معنى الشرك، ولهذا لمّا عُرِّفَ التوحيد عند أهل التخنيث بأنّ معناه الإقرار بأنّ الله هو الرب الخالق؛ أشركوا بالله مِن حيث لم يشعروا أنهم وقعوا في الشرك، قالوا: لأنه – وإنْ صرفنا العبادة لهؤلاء في قبورهم – إلّا أنّا لا نعتقد أنهم يخلقون ويرزقون! فيقال: مَن قال لكم إنّ التوحيد الذي جاءت به الرسل هو اعتقاد بأنّ الله هو الخالق الرازق؟؟ هذا منصوص القرآن على أنّ أهل الجاهلية يُقِرُّون به ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾(١) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(٢) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾(٣) فهم يُقرّون بهذا أصلًا؛ ومع ذلك وقعوا في الشرك، سمّاهم الله بالمشركين لأنهم صرفوا العبادة لغير الله، فحقيقة الشرك الذي نهت عنه الرسل صلّى الله عليهم وسلّم هو صَرْفُ العبادة لغير الله، كيف خفي عليهم هذا؟ لأنهم ظنوا أنّ التوحيد الذي دعت إليه الرسل أنْ يُقِرُّوا أنّ اللهَ هو الربُّ، فبالتالي صار الشرك أنْ يعتقدوا أنّ هناك ربًّا مع الله! وهذا لم يكن يعتقده كفار قريش بنص الآية الكريمة، ومنها آية سورة يونس ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾(٤) كل الأمر

(١) الزخرف: ٨٧.

(٢) العنكبوت: ٦١.

(٣) العنكبوت: ٦٣.

(٤) يونس: ٣١.

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[1] كيف تُقِرُّون بأنّ لله كلَّ هذا ثم تصرفون العبادة لغيره؟؟ لماذا صرفوا العبادة لغيره؟ لأنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا﴾[2] هذه الشبهة، لأنهم هؤلاء معظمون مِن صالحين أو ملائكة أو أنبياء أو غيرهم؛ فنتقرب بالعبادة لهم حتى تُقَرِّبَنَا إلى الله، فأمّا أنْ يعتقدوا أنها هي التي تخلق وترزق! فأبدًا ما كانوا يعتقدون هذا، ولهذا كانوا يقولون في طوافهم – كما في صحيح مسلم –: لبيك لا شريك لك، فيقول النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «قَدِ؛ قَد»[3] يعني حسبكم، قفوا عند هذا، لأنّ هذا توحيد، فيقولون: إلّا شريكًا هو لك تملكه وما مَلَكَ، هم يعتقدون أنّ الله يملك هذه المعبودات، الملك الحقيقي لله عزّ وجلّ؛ ومع ذلك كانوا مشركين، لماذا خفي هذا على أناس ينتسبون للإسلام؟ لأنهم لم يعرفوا حقيقة التوحيد، كذلك الحال بالنسبة للإيمان، إذا لم تعرف حقيقة الإيمان لابُدّ أنْ ينعكس هذا عليك في حقيقة الكفر، ولهذا المرجئة لمّا عزلوا العمل وعزلوا القول عن الإيمان وجعلوا الإيمان مرتبطًا بتصديق القلب فقط؛ جعلوا الكفر مرتبطًا بكفر القلب فقط، فانفتح بابٌ خطير جدًا وهو أنه إذا كان الأمر كذلك فما حال مَن ينطق بالكفر؟ كمن يَسُبُّ اللهَ – والعياذ بالله – أو رسوله صلّى الله عليه وسلّم؟ وما حال مَن يفعل الكفر كمَن يسجد لغير الله تعالى غير مكره وإنما مختارًا متعمدًا؟ فإنْ قالوا: إنه كافر؛ نقضوا قولهم: إنّ الإيمان مرتبط بالقلب، وبالتالي الكفر مرتبط بالقلب، لأنّ هذه أقوال وأفعال، وإنْ لم يكفروه فإنهم كما قال الكشميري – وهو واحد منهم – قال: يخالف إجماع الأمة، الأمة مجمعة على أنه مثل هذه التصرفات كَسَبِّ الله أو السجود للصنم – مِن قِبَلِ المختار المتعمد – أنّ هذا كُفْرٌ ولا يمكن ألّا يكون كفرًا! نقول: السبب في هذه الفوضى عندهم في الكفر أنهم لم يضبطوا معنى الإيمان، والسبب في الفوضى في الشرك أنهم لم يضبطوا معنى التوحيد، ولهذا ضَبْطُ المسألة يكون بمعرفة أنّ الإيمان قول واعتقاد وعمل، وبالتالي الكفر قول واعتقاد وعمل، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾[4]، فنطقوا كلمة الكفر، كما قال

---

(١) يونس: ٣١.

(٢) الزمر: ٣.

(٣) صحيح مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) التوبة: ٧٤.

تعالى: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[1] فلابُدّ أنْ يُضبط هذا الأمر، لابُدّ أنْ يُضبط أَمْرُ الإيمان؛ وأنْ يُعرف مِن خلال كلام أهل العلم، وكلام الحميدي هنا – رحمه الله تعالى – غاية في الوضوح: أنّ الإيمان قول وعمل، وهذا كثير مِن الناس يقوله، لكن ما يدري بأنه لا ينفع قول إلّا بعمل، فإذا قال: لابُدّ أنْ يعمل، أمّا إذا قال واعتقد ولم يعمل؛ فإنه لا ينفعه، لهذا قال: لا ينفعه قول إلّا بعمل؛ ولا عمل وقول إلّا بنية، يعني لا ينفعه أنْ يعمل ويقول إذا كان فاسد القلب وقصده ليس لله عزّ وجلّ، فالمسألة مرتبطة على هذا الرابط، ومَن لم يضبط المسألة هذا الضبط صار عنده التخليط، ولهذا تركب – للأسف – عند بعض المتأخرين مقولة غريبة جدًّا أوَّلُها مِن قول أهل السُّنَّة وآخرها مِن قول المرجئة، فيقول: إنّ الإيمان قول واعتقاد وعمل؛ ثم إذا ترك العمل؛ فإنه لا يكون كافرًا! لو ترك العمل مطلقًا! إذًا ما معنى قوله: "قول واعتقاد وعمل؟" الحقيقة أنك تقول: إنّ الإيمان قول واعتقاد! لأنه ليس هناك أثر لقولك بترك العمل، وكان شيخنا – الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى – يغضب غضبًا شديدًا لو جاء أحدٌ يستدل بحديث «لم يعملوا خيرًا قطّ»[2] – كما هو حال كثير نسأل الله أنْ يردنا وإيّاهم لهدايته – كان يقول رحمه الله تعالى: "هذا الحديث يُرَدُّ إلى بقية الأحاديث" ويقول للسائل مرة – وهو قليل المناقشة مع السائل رحمة الله تعالى عليه – لَمّا قال هذا الحديث؛ قال له مَرَّةً مِن المرات قال له: "لو قال: لا إله إلّا الله؛ وأبى أنْ يقول: محمد رسول الله؛ ينفعه؟ قال السائل: لا، قال كذلك في الحديث: «مَن قال: لا إله إلّا الله دخل الجنة»؛ وإنْ لم يقل محمد رسول الله!! قطعًا لا، مِن أين علمنا – والحديث هنا فيه إطلاق – «مَن قال: لا إله الله دخل الجنة» وليس في الحديث أنّ مَن قال: محمد رسول الله دخل الجنة! مِن النصوص الأخرى، تجمع النصوص بعضها إلى بعض، هذا اعتقاد أهل السُّنَّة كما ترى، قول واعتقاد وعمل، وكما حكى الشافعي رحمه الله الإجماع، لا ينفع واحد منها إلّا بالآخر، كما قال الآجريُّ رحمه الله في الشريعة "لا ينفع واحد منها إلّا بالآخر"[3]، فلا يُرَكَّز على اثنين منهما ويُترك الأخر، وإلّا ما صار لقولك "عمل" فائدة! ولذلك تركبت هذه المسألة، وأنا في هذا المقام أُنَبِّهُ لأمر مهم جدًّا لطلبة العلم: اعلم

(١) التوبة: ٧٤.

(٢) صحيح مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) يُنظر: الشريعة للآجريّ (٢/ ٦١١).

أنّ كثيرًا مِن شروح الحديث وكتب التفسير وكتب الأصول صنفها أناس مِن المرجئة وصنفها أناس مِن المعطلة للصفات، فانتبه يا طالب العلم لِأَخْذِ ما فيها مِن النافع وترك ما قد يلج إلى هذه الكتب مِن عقائد المصنفين، لأنّ جزءًا مِن الخلل الذي وقع في بعض طلبة العلم ممّن انحرف كان أتاهم مِن الشروح، ولهذا تجد أنهم يستدلون بكلام المرجئة، فيقولون: قال فلان، فنقول: هذا ممّن هو؟ مِن الأشاعرة، طيب والأشاعرة ما عقيدتهم؟ يرون أنّ الإيمان تصديق فقط فيخرجون العمل ويخرجون القول حتى، مِن هنا أُتُوا، وقد نبَّه وذَكَرَ هذا الكلام أكثر مِن مرة الشيخ العلامة محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى إلى أنّ بعض طلبة العلم يركزون على أبواب مِن العلم كالفقه مثلًا والمصطلح ويغفلون عن أَمْرِ العقيدة، ولهذا تدخل عليهم مثلُ هذه الدواخل وهم لا يشعرون لأنّ الفقه – كما تعلم – ميدان واسع، يصنف فيه مَن هو على اعتقاد صحيح ومَن هو على غير اعتقاد صحيح، شروح الحديث هناك مَن شرح مِن ذوي الاعتقاد الصحيح وهناك مَن شرح مِن غير ذوي الاعتقاد الصحيح، فانتفع بالشروح هذه كلها، ولا تفعل مثلما قال بعضهم: تُجْمَعُ وتُحْرَقُ!! هذا إنسان ليس مِن الراسخين في العلم، يُستفاد منها هذه، لكنْ لابُدّ أنْ تعرف اعتقادَ المصنف حتى لا يُدخل عليك شيئًا مِن الخلل وأنت لا تشعر، خُذْ عندك على سبيل المثال تفسير الزمخشري، تفسير الزمخشري – كما ذكر شيخ الإسلام – يقول رحمه الله تعالى: الزمخشري يدخل اعتزالياته بطريقة خفية لا يشعر بها القارئ، وفعلًا الزمخشري بهذه الطريقة يُدخل مسائله – لأنه معتزليّ – يُدخل مسائل الاعتزال في أثناء تفسير الآيات ولا يدري بعضُ مَن ينقلون هذا الكلام أنّ هذا قول المعتزلة.

الحاصل أنّ على طالب العلم أنْ يضبط مثلَ هذه المسائل وأنْ يَرُدَّها – إذا اشتبهت عليه – إلى مَن هو أعلم منه؛ وأنْ لا يخوض فيها، وهذه المصنفات والردود التي تكاثرت كلها بسبب عدم ضبط المسألة على هذه الهيئة، فالواجب أنْ تُضبط هذه المسألة ضبطًا سليمًا على وفق ما ترى الآن مِن كلام المصنفين السابقين رحمهم الله، وتضبط المسألة على فهم الصحابة والتابعين في هذا الباب وفي غيره مِن الأبواب.

والترحم على أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم كلهم، فإنّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾(١)، فلن يؤمن إلّا بالاستغفار لهم، فمَن سَبَّهم أو تنقصهم أو أحدًا منهم؛ فليس على السُّنَّة، وليس له في الفي حق. أخبرنا بذلك غيرُ واحد عن مالك بن أنس؛ أنه قال: "قَسَم الله تعالى الفي فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾(٢) ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾(٣) فمَن لم يقل هذا لهم فليس ممن جُعِلَ له الفيءُ.

.....

تكلم رحمه الله تعالى عن هذه المسألة العظيمة، وهي مسألة خالفَ فيها أهلُ السُّنَّة طائفتين مِن طوائف الضلال – الرافضة في أصنافهم والخوارج –، فهاتان الطائفتان تعرضتا للصحابة رضي الله عنهم؛ ومَن تأثر مثل بعض الحثالات مِن المعتزلة؛ فإنه يكون متأثرًا مِن إحدى الطائفتين، وإلّا فالأصل أنّ الصحابة بالنسبة لعموم الفِرَق – حتى الفِرَق التي عندها فيها ضلال في أبواب أخرى – مُجْمَلُ الفِرَق في هذا الباب قولُها واحد في الصحابة رضي الله عنهم، لأنّ أَمْرَ الصحابة واضح رضي الله عنهم وأرضاهم، الصحابي هو مَن لَقِيَ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم مؤمنًا به ومات على ذلك، كلُّ مَن عاصر النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم ورآه – ولو كما قال الإمام أحمد – ولو ساعة؛ ولو أدنى نظرة؛ فإنه يُعَدُّ صحابيًّا بشرط أنْ يكون مؤمنًا به، أمّا لو رآه وهو كافر كأبي جهل وأبي لهب فمعلوم أنّ هؤلاء مِن الكفار، فالصحبة ضابطُها الإيمان؛ ومات على ذلك، بمعنى أنه لم يرتد، يعني لو آمن بالنبي صلّى الله عليه وسلّم ثم ارتد؛ فإنه لا يكون صحابيًّا، هذا هو ضابط الصحبة، الواجب حيال أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم الترحم عليهم جميعًا – كما أَمَرَ الله عزّ وجلّ –، ولهذا قال: "والترحم على أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم كلهم" بخلاف قول الرافضة وقول الخوارج، فإنّ الرافضة تتولى عددًا قليلًا مِن الصحابة كعليّ وابنيه رضي الله عنهم، وربما أضافوا إليهما مثل أبي ذرّ

(١) الحشر: ١٠.

(٢) الحشر: ٨.

(٣) الحشر: ١٠.

وعمار، ومعظمُ الصحابة – أكثر الصحابة – الرافضةُ يسبونهم ويشتمونهم؛ بل يُصرحون بكفرهم حتى أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهم أجمعين –، وأمّا الخوارج؛ فإنّ الخوارج كما سمّاهم النبي صلّى الله عليه وسلّم: «حُدثاء الأسنان، سُفهاء الأحلام»(١) قومٌ فيهم سَفَهٌ، أتوا إلى الصحابة رضي الله عنهم فقالوا: إنّ أبا بكر وعمر ومَن معهم – هؤلاء ومَن كان في وقتهم – هؤلاء نترضى عنهم ونتولاهم؛ أمّا مَن بعدهم عثمان وعليّ وطلحة والزبير وغيرهم فإنهم يُعادونهم بل ويكفرونهم! فأتوا إلى نفس الصحابة رضي الله عنهم، يعني أيّها الأخوة طريقة الخوارج هي نفس طريقة الرافضة، الرافضة أتوا إلى عليّ ووالوه وأبناءه، وعادوا مَن قَبْل عليّ: عثمان وعمر وأبا بكر رضي الله تعالى عنهم وعموم الصحابة، الخوارج – وإنْ كانوا أقل في شَرِّهم في هذا الباب – إلّا أنهم أيضًا يأتون إلى العشرة المبشرين مثلًا فيقولون: أبو بكر وعمر هؤلاء نتولاهم، وعثمان وعليّ – مع أنهم مِن العشرة وفي نفس الحديث – وطلحة والزبير هؤلاء نعاديهم! ولهذا قال رحمه الله: "والترحم على أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم كلهم؛ فإنّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾(٢)، هذه الآية ذكرها الله تعالى بعد آية المهاجرين، فقال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(٣) هذه في المهاجرين، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾(٤) فهذه في الأنصار، قال بعدها: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾(٥) هذه الآية إلى قيام الساعة؛ كلُّ مَن يأتي بعد المهاجرين والأنصار يَلْزَمُه أنْ يستغفر لمَن سبقوه بالإيمان؛ وأنْ يستحضر أنّ هؤلاء قد أكرمهم الله تعالى بالسَّبْق بالإيمان قبله – حتى لو كان زمن الرسول صلّى الله عليه وسلّم –، لأنه أتى بعد المهاجرين والأنصار ممّن تأخر

(١) صحيح البخاري (٣٦١١) من حديث عليّ رضي الله عنه مرفوعًا.
(٢) الحشر: ١٠.
(٣) الحشر: ٨.
(٤) الحشر: ٩.
(٥) الحشر: ١٠.

إسلامُه، ويشملهم جميعًا اسمُ الصحبة، وله شرف الصحبة وفضل الصحبة؛ ومع ذلك عليه أنْ يعلم أنّ المهاجرين والأنصار قد بَلَغُوا هذا المقدار، فعليه أنْ يستغفر لهم ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]، فإذا كان هذا يشمل حتى مَن بعد المهاجرين والأنصار مِن الصحابة؛ فما بالك بمن لم يَشْرُفْ أصلًا بالصحبة؟ فمِن باب أولى أنْ يُلْزَم بالاستغفار لهم؛ وأنْ لا يَجعل في قلبه غِلًّا على أيّ منهم، ثم قال رحمه الله: "فمَن سَبَّهم" السّبُّ المُقْذِع والقبيح – الذي يصل الى حد التكفير أو ما دونه – "أو تنقصهم" بأنْ يَلْمِزَهم بأنهم أهل دنيا؛ وأنهم كذا وكذا – ولو لم يصل إلى هذا الحد – قال: "أو أحدًا منهم" سواء كان تعرضه لعموم الصحابة رضي الله عنهم أو كان لأحد منهم كأنْ يتسلط على معاوية أو على عَمْرو – رضي الله تعالى عنهما – فليس على السُّنَّة بلا أدنى شك، التعرض لأي صحابي يجعل المتعرض له بالسوء على غير السُّنَّة، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى لَمَّا سُئِلَ عن رجل يتناول معاوية بالسوء: أيُصلى خلفه؟ قال: "لا؛ ولا كرامة"[2]، ولَمَّا سُئِل عن رجل يقول في عثمان قولا سيِّئًا؛ قال: ما أحسبه على الإسلام[3]، فمَن يصل به الأمر إلى أنْ يتعرض إلى أصحابه صلّى الله عليه وسلّم أصلًا إسلامُه مَحَلُّ إشكال – يثبت أو لا يثبت –، أمّا أنْ يكون ممن يُصدَّر للإمامة ونحوه! هذا يخسأ؛ هذا المبتدع الضال، لا ولا كرامة، فلا يصلح أنْ يتقدم ويَؤُمَّ الناس، ولا يصح أنْ يُصلّى خلفه، هذا إذا تعرض لمعاوية فقط ولعمرو فقط، فما بالك مَن يتعرض لعموم الصحابة – رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم – ثم يحمله النفاق وتقديم الدنيا على الدين؛ يحملهم على أنْ يصلوا خلف الرافضة! لا يفعل هذا مَن ضبط العقيدة بلا أدنى شك، إنما يفعل هذا أهل الريب والنفاق، الذين يُقدِّمون الدين ألعوبة، هؤلاء لا يصح أنْ يُصلّى خلفهم، وليسوا أهلًا أصلًا أنْ يُؤْمَنُوا على الصلاة! بل هم على الضلالة، لهذا قال: "فمن سَبَّهم أو تنقصهم أو أحدًا منهم فليس على السُّنَّة"، ثم ذكر مسألة فقهية نقلها عن الإمام مالك رحمه الله بالتحديث،

---

(١) الحشر: ١٠.

(٢) مسائل ابن هانئ (٦٠/ ١).

(٣) لم أعثر عليه، ولكن في كتاب "السُّنَّة" للخلال (٣/ ٤٩٣) قال رحمه الله: "أخبرنا أبو بكر المروذي، قال: سألت أبا عبد الله عن من يشتم أبا بكر وعمر وعائشة؟ قال: ما أراه على الإسلام".

لأنه ينقل عن تلاميذ الإمام مالك – كما عندك هنا أخبرنا بذلك غير واحد عن مالك –، مجموعة مِن تلاميذ مالك – رحم الله الجميع –، يقول: "ليس لمَن سَبَّ الصحابة نصيب في الفيء" ما علاقة هذه المسألة؟ الفيء يوزع على المسلمين عمومًا، قال: لأنّ الله تعالى قال لمَّا قَسَم الفيءَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾[1] يعني الفيء – الذي قال الله تعالى في الآية قبل هذه الآية – ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ قال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾[2] الآية، ثم قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ فالصنف الأول الذين لهم الفيء هم المهاجرون ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[3] وهذه في الأنصار، ثم قال في الصنف الثالث الذي هو مِن أهل الفيء: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾[4] هذا قيد، حتى يُعْطَوا مِن الفيء لابُدّ أنْ يكونوا قائلين في الصحابة رضي الله عنهم بالقول الجميل؛ مستغفرين لهم جميعًا ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾[5] قال: "فمن لم يقل هذا لهم؛ فليس ممن جُعِلَ له الفيء" لأنّ الله ما قسم الفيء على أيّ أحد! وإنما قسم الفيء على هذه الفئات الثلاث – على المهاجرين وعلى الأنصار وعلى الذين مِن بعدهم بشرط أنْ يقولوا ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان – أمّا الذي يسبهم ويشتمهم ما قال ربنا اغفر لهم! بل قال بخلاف ما يقتضيه الاستغفار والقول الجميل لهم رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، ولهذا قال: "فمن لم يقل هذا لهم؛ فليس ممن جُعِلَ له الفيءُ" وقد استحسن أهل العلم هذا الاستنباط مِن هذا الفقيه الإمام مالك، وأيده عليه العلماء رحمة الله تعالى عليهم؛ وقالوا مَن تعرض للصحابة – رضي الله عنهم – فإنه ليس لهم نصيب في الفيء، لأنه إذا كان مسكينًا فإنه لا يُعطى مِن الفيء – وإنْ كان مِن ضمن مَن يُقسم عليهم الفيء – لأنك لم تلتزم ما أَمَرَ الله تعالى في الذين جاءوا مِن بعدهم، وعلى كل حال الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم وأمهات المؤمنين وآل بيت النبي صلّى الله

(١) الحشر: ٨.

(٢) الحشر: ٧.

(٣) الحشر: ٩.

(٤) الحشر: ١٠.

(٥) الحشر: ١٠.

عليه وسلّم عند أهل السُّنَّة التعرضُ لهم يُحيل الرجلَ إلى البدعة، ويكون كما قال هنا يقول: "فليس على السُّنَّة" لا يكون على السُّنَّة، حتى لو قال في أبواب أخرى في التوحيد والنبوة واليوم الآخر على طريقة أهل السُّنَّة؛ لكن إنْ تعرض للصحابة رضي الله عنهم بالسوء أو لأحد منهم فإنه على غير السُّنَّة، حتى لو صار في أبواب أخرى على السُّنَّة، وبه تَعْلَم أنّ هذه المسألة مِن المسائل المايزة العظيمة جدًّا بين أهل السُّنَّة وبين غيرهم، وأنه لا يصح بحال مِن الأحوال أنْ يُجامَل أحدٌ كائنًا من كان في التعرض لأحد مِن الصحابة، فمَن تعرض لعثمان رضي الله عنه أو تعرض لمعاوية أو تعرض لعليّ أو للزبير أو لطلحة أو لعائشة – رضي الله عن الجميع – أو تعرض لأيّ مِن الصحابة فإنه قد خرج في هذا الباب عن السُّنَّة، والواجب – وهذه مِن العجائب التي سبحان الله تدل على غربة الدين – أنْ يُجامَل فلانٌ في عثمان! يعني: لله العجب! ضع هذا في الميزان وضع عثمان في الميزان، تُجامِل في صحابي! تُجامِل في رجل زوجه النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بنتيه! تُجامِل في رجل قد قطعنا قطعًا أنه مِن أهل الجنة! رجل مهاجر وصحابي رضي الله تعالى عنه وأرضاه بهذا المقدار وهو أفضل الصحابة بعد أبي بكر وعمر؛ تريد أنْ تُجامِل فلانًا وفلانًا في عثمان! يعني أيعقل أنْ يكون هذا الذي تريد أنْ نُجامِلك فيه أفضل مِن عثمان أو أفضل مِن معاوية أو أفضل مِن عليّ! هذه مسألة مايزة، وهذه مسائل الاعتقاد – أيها الأخوة – مسائل كبار، يتضح بها المسلك الصحيح مِن المسلك المُعْوَج، فأهل المداهنات والعبث بدين الله عزّ وجلّ يريدونك أنْ تسكت عن هؤلاء المبطلين في حق الصحابة لأنّ لهم مكانًا عندهم، هذه المكانة أفضل مِن مكانة الصحابة رضي الله عنهم؟؟ أو تبلغهم؟؟ أو أصلًا هناك أدنى مقارنة بينهم وبين الصحابة؟؟ فمن تَعَرّض لصحابي – كائنًا مَن كان – فإنه على غير السُّنَّة كما سمعت، فمَن سَبّهم أو تنقصهم – أو أحدًا منهم – فليس على السُّنَّة؛ وليس له في الفيء حقّ.

قال رحمه الله تعالى: والقرآنُ كلامُ الله، سمعتُ سفيانَ يقول: "القرآنُ كلامُ الله، ومَن قال مخلوقٌ؛ فهو مبتدعٌ، لم نسمع أحدًا يقول هذا"، وسمعت سفيان يقول: "الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص"، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: "يا أبا محمد؛ لا تقل ينقص!" فغضب وقال: "اسكت يا صبي، بل حتى لا يبقى منه شيء".

.....

ذَكَرَ هنا رحمه الله مسألة القرآن، القرآن كلام الله، وكلام الله عزّ وجلّ صفة مِن صفاته، وصفات الله قطعًا غير مخلوقة، ومَن قال: إنّ شيئًا مِن صفات الله مخلوق! فقد أعظم الفرية على الله عزّ وجلّ، والرب سبحانه بأسمائه وصفاته غير مخلوق بلا شك، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١) الفَرْقُ العظيم بين الرب وبين غيره – سبحانه وتعالى – الفَرْقُ الأعظم أنّ الله تعالى رب يَخْلُق؛ وكل مَن سواه عبيد مخلوقون، قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾(٢) فهم عبيد خلقهم الله، فإذا قيل: إنّ مِن الله تعالى – والعياذ بالله – شيء مخلوق! ترتب على هذا – والعياذ بالله – إبطالُ أصل العبادة، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾(٣)، فأبطل الله سبحانه استحقاقهم لعبادته بأنّ هذه المعبودات – أيًّا كانت المعبودات – أبطل استحقاقها للعبادة بكونها تُخْلَق، والذي يُعبد هو الذي يَخْلُق، ولهذا قال تعالى في الآية قبلها: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٤)، فإذا قيل: إنّ مِن صفات الله تعالى شيئًا مخلوقًا! بَطَلَ أصلُ عبادة الرب عزّ وجلّ، لأنّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾(٥)، قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾(٦) تعليل، لماذا تعبدون ربكم؟ لأنه هو الذي خلقكم، فإذا قيل: إنّ مِن الله تعالى شيئًا مخلوقًا؛ قيل: استحقاق العبادة مبني على كون الله تعالى يَخْلُق، فإذا كان مِن الله تعالى شيء مخلوق؛ بطل أصلُ استحقاق العبادة، وهذا نموذج – يا أخوة – على أنّ الخلل في أي نوع مِن أنواع التوحيد ينعكس على النوع الثاني، هذا الخلل الذي وقع فيه المعتزلة وأضرابهم – ولا تزال عليه الإباضية الآن – هذا الخلل في الأسماء والصفات يضرب توحيدَ العبادة، لأنّ استحقاق الله للعبادة عزّ وجلّ لكونه هو الخالق، ولهذا قال

---

(١) النحل: ١٧.

(٢) مريم: ٩٣.

(٣) النحل: ٢٠، ٢١.

(٤) النحل: ١٧.

(٥) البقرة: ٢١.

(٦) البقرة: ٢١.

تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾[1] فكونه هو الخالق يجعله المستحقَّ للعبادة وحده، فإذا قيل: إنّ منه شيئًا مخلوقًا! فإنّ هذه كلمة عظيمة جدًا، أولًا: في استنقاص رب العالمين، الأمر الثاني في أنه يُبطل استحقاقَه للعبادة! لأنه لم يَعُدْ بين الخالق والمخلوق – نسأل الله العافية – فَرْقٌ! ولهذا الإمام أحمد رحمه الله تعالى وأئمة السُّنَّة لمّا ابتُلوا بالمعتزلة وتَقَوّت • المعتزلة عليهم بخلفاء بني العباس الثلاثة – المأمون والمعتصم والواثق – وسُجن مَن سُجن مِن علماء السُّنَّة؛ وعُذِّبَ مَن عُذِّبَ؛ أحمد رحمه الله تعالى لمّا قيل له: إنْ عُرِضْتَ على السيف ترجع؟ قال: لا، أنت تعلم أنّ العرض على السيف ماذا يعني شرعًا؟ الإكراه، والإكراه شرعًا ليس فيه مندوحة! قال: ما أرجع؛ حتى لو عُرضتُ؛ يعني حتى لو قُتِلْتُ، المسألة عظيمة، وستضل الأمة لو سكتنا، ولهذا وقف رحمه الله تعالى هذا الموقف حتى يُعلم أنّ هذه المقولة بشعة للغاية، ولهذا وقف رحمه الله تعالى، ورفع الله تعالى له ذِكْرَهُ، هنا مسألة مهمة أنّ الموقف هنا ليس لأحمد وحده، أحمد أظهره الله تعالى لأنه أقوى مَن قاوم، لكن هنا عدد مِن علماء الأمة قُتِلوا رحمهم الله تعالى وسُجِنَ منهم مَن سُجِنَ حتى أخرجه المتوكلُ رحمة الله تعالى عليهم، وهو الخليفة السُّنِّي الذي جاء بعد الخلفاء الثلاثة الذين جَارَوا المعتزلة في هذه العقيدة، فالعقيدة هذه خطأ، وبعض مَن لا يعي ولا يفقه يقول: هذه المسألة الإمام أحمد رحمه الله وأسكنه الجنة كان ما ينبغي له أنْ يقف لها هذه الوقفة! وأنْ يُعرض نفسه للمحنة لأجل مثل هذه المقولة! لأنك أنت تجهل المسألة، ولا تدري بالذي سيترتب على القول بأنّ القرآن مخلوق، لأنّ القرآن كلام الله؛ وكلام الله صفته، وإذا قيل: إنّ صفات الله تعالى مخلوقة! بَطَلَ استحقاقُ الرب أصلًا للعبادة، فكونك أنت تجهل ما الذي يترتب على القول بأنّ القرآن مخلوق؛ لا يعني أنْ تنتقدَ أحمدَ بن حنبل؛ وتظن أنّ الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كان فارغًا! ما يدري بمثل هذه المسائل وما دونها! أو كان يتلذذ بالسجن والأذية! الإمام أحمد لفقهه وعلمه بخطورة هذه المسألة وأنها مقولة إنْ سَرَتْ في الأمة سَرَى الكفر؛ وقف رحمه الله، ورأى أنّ الإكراه أصلًا لا يُعفيه في مثل هذه المسألة رحمه الله، وكون الناس يَقْصُرُون عن فهم أبعاد بعض الخلل العقدي وخطورته لا يعني أنّ أهل العلم الراسخين مِن علماء السُّنَّة يكونون محل النقد! فإنّ علماء السُّنَّة ما وقفوا ذلك الموقف تعصبًّا وعنادًا للولاة! ليس هذا مِن طبعهم رحمة الله تعالى عليهم،

(١) فصلت: ٣٧.

وإنما لِعِلْمِهم الذي كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: "فإنْ قلتَ أين آية كذا؟ فقد قرأوا مثلها قرأتم وعَلِمُوا منها ما جهلتم"(١) فهم علموا ما جهله الذي لا يعي بأبعاد مثل هذه المقولة، لهذا قال رحمه الله: "سمعت سفيان يقول: القرآن كلام الله، ومَن قال: مخلوق فهو مبتدع" أي بدعة مكفرة، هذا المراد، لأنّ القول بأنّ القرآن مخلوق؛ قد أجمع أهل السُّنَّة والجماعة على أنّها مقولة كفرية، فمَن قالها فإنه يكفر، ونقل اللالكائي رحمه الله عن أكثر مِن خمسمئة مِن علماء السُّنَّة في الشام العراق ومصر والجزيرة والحجاز والثغور وخراسان وسَرَدَهم واحدًا واحدًا – رحمه الله – أنهم جميعًا متفقون على أنّ القول بأنّ القرآن مخلوق كُفْرٌ، أي أنّ قائله يكفر، وأشار إلى هذا ابن القيم رحمه الله في النونية فقال: "ولقد تَقَلَّد كفرَهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان" خمسون في عشرة خمسمئة، "ولقد تَقَلَّد كفرَهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان، واللالكائيُّ الإمامُ حكاه عنهم؛ بل حكاه قَبْلَه الطبراني"، فهي مقولة خطرة جدًا، ولا يعي أبعادَها كثيرٌ مِن المُخَبِّصِيْن؛ مِن الذين تكلموا في هذه السنوات الأخيرة، وإلّا المسألة على جانب كبير مِن الوعورة والخطورة، ولأجل ذلك وقف أئمةُ السُّنَّة هذا الموقف، ثم نَقَل عن سفيان رحمه الله – وهذه مسألة الحقيقة مرتبطة بالإيمان لكنه عاد إليها الآن – أنّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فأخوه ابراهيم بن عيينة قال: يا أبا محمد: لا تقل يزيد وينقص! فغضب وقال: "اسكت يا صبي"، هو ليس طفلًا صغيرًا! لكنّ يقصد أنّ عقلك عقلُ طفل، "بل حتى لا يبقى منه شيء"، بل ينقص حتى لا يبقى منه شيء، هذا المعنى، يعني أنه ينقص حتى لا يبقى منه شيء.

قال رحمه الله تعالى: والإقرارُ بالرؤية بعد الموت، وما نطق به القرآنُ والحديثُ مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾(٢) ومثل قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾(٣) وما أشبه هذا

---

(١) الإبانة الكبرى لابن بطة (٤/ ٢٣٢).

(٢) المائدة: ٦٤.

(٣) الزمر: ٦٧.

مِن القرآن والحديث، لا نزيد فيه ولا نفسره، نقف على ما وقف عليه القرآن والسُّنَّة ونقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] ومَن زعم غير هذا فهو مُعَطِّلٌ جهميٌّ.

.....

ذَكَرَ رحمه الله تعالى أكثرَ مِن مسألة، المسألة الأولى: ما يتعلق بالرؤية يعني رؤية الرب سبحانه وتعالى في الجنة مِن قِبَل المؤمنين، وهذه مسألة أجمع أهل السُّنَّة عليها جميعًا، وما خالف فيها إلّا المعتزلة ومَن تأثر بأقوالهم، والرؤية تكون إلى وجه الرب سبحانه وتعالى، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «أسألك لذة النظر إلى وجهك»[2]، فالنظر يكون إلى وجه الله، قال أهل العلم: إنّ أعظم لذة في الجنة هي النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى، فلمّا شَقِيَ هؤلاء وقَلّ عِلْمُهم بالله عزّ وجلّ؛ نَفَوا أعظمَ لذة في الجنة على الإطلاق، والرؤيةُ دلت عليها عدةُ نصوص، منها قوله تبارك وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3]، فالنضارة والبهاء والحُسْن في هذه الوجوه لأنها نظرت – بالظاء أخت الطاء – بالأعين إلى الرب سبحانه وتعالى، ولذا قال: "وجوه"، والوجوه هي التي فيها الأعين، وثبت في صحيح مسلم أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[4] فقال: الحسنى: الجنة، والزيادة: النظرُ إلى وجه الله»[5]، وهكذا عدة نصوص، وروى أحاديثَ الرؤية نحو مِن ثلاثين مِن الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، روى أحاديثهم الدارقطنيُّ رحمه الله تعالى في كتاب الرؤية، وسَرَدَ في سياقين اثنين في اللالكائي رحمه الله تعالى نصوصَ القرآن ونصوص السُّنَّة والآثار عن الصحابة والتابعين ومَن بعدهم في إثبات أنّ الرؤية تكون إلى الرب سبحانه وتعالى بالأعين، وهذا الأمر أجمع عليه أهلُ السُّنَّة، فلا يُخالِف في الرؤية إلّا الجهمية والمعتزلة وأضرابُهم، ثم قال: "والإقرار بالرؤية بعد الموت" قوله: "بعد الموت" هذا قيد، قال صلّى الله عليه وسلّم كما

---

(١) طه: ٥.

(٢) صحيح. رواه النسائي (١٣٠٥) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الجامع (١٣٠١).

(٣) القيامة: ٢٢، ٢٣.

(٤) يونس: ٢٦.

(٥) صحيح مسلم (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه مرفوعًا.

في صحيح مسلم:" «واعلموا انّ أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت»[1]، فمِن المحال أنْ يرى أحد رب العالمين في الدنيا، ولمّا طلب موسى أنْ يرى ربه تعالى ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾[2]، فلم تحصل الرؤية حتى لموسى صلى الله عليه وسلم، فمَن ادّعاها فهو كاذب، مَن ادّعى أنه يرى الله فإنه كاذب، مَن ادعى أنه يرى الله – كمخرفي الصوفية وأضرابهم – فإنه كاذب على الله تعالى مفترٍ، والرؤية لا تكون إلّا بعد الموت كما في الحديث الذي ذكرناه «واعلموا أنّ أحدًا لن يرى ربه حتى يموت»، ففي الدنيا لا يمكن أنْ يرى أحدٌ ربَّ العالمين، ولا يمكن أنْ يَثْبُتَ أحد حتى يرى رب العالمين، ولهذا لمّا سأل أبو ذر النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم: يا رسول الله؛ رأيت ربك؟ قال: «نور أنّى أراه؟؟»[3] سبحانه وتعالى، فالحاصل أنّ الرؤية تكون بعد الموت، وهي أعظم لذائذ أهل الجنة، قال: "والإقرار بالرؤية بعد الموت؛ وما نطق به القرآن والحديث" يعني نُقِرُّ بما نطق به القرآن والحديث، وهذان هما المصدران في التعريف برب العالمين، ما نطق به القرآن والحديث مِن هذه النصوص المتعلقة بالصفات والتعريف بالله عزّ وجلّ فإنّا نُقِرُّ به، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[4] فنفى الله تعالى عن يديه الغَلّ وأثبت أنّ له تبارك وتعالى يدين كريمتين سبحانه وتعالى مبسوطتين، ومثل قوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[5] فيه إثبات اليمين للرب تعالى؛ وأنه يطوي السموات سبحانه وتعالى كما في الحديث الصحيح «إنّ الله يضع السموات على أصبع والأرضين على أصبع»[6] إلى آخر الحديث، قال: "وما أشبهها" يعني لن أَسْرُدَ لك، لن لن أقول لك: والنزول وكذا! يكفي، أنا أُقَرِّرُ لك في المختصر أنّ أيّ شيء نطق به القرآن والحديث مثل هاتين الآيتين أو أي حديث ثبت عنه صلّى الله عليه وسلّم فإنا نُقِرُّ به، ثم قال: "لا نزيد فيه" يعني لا نأتي مِن

---

(١) صحيح مسلم (١٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) الأعراف: ١٤٣.

(٣) صحيح مسلم (١٧٨) من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) المائدة: ٦٤.

(٥) الزمر: ٦٧.

(٦) صحيح البخاري (٤٨١١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

قِبَل أنفسنا ونزيد صفة نثبتها لله لم تأت في القرآن والحديث! لأنّ الأسماء والصفات توقيفية، إنما نعرفها مِن القرآن والسُّنَّة، "ولا نفسره" المقصود بقوله "ولا نفسره" في كلامه هنا وفي كلام السلف وفي كلام المصنفين مِن علماء السُّنَّة ليس المقصود لا نفسر معناه! وإنما المقصود لا نفسره التفسيرَ المُحْدَث الذي أتت به الجهمية، لأنّ الجهمية لمّا أتت إلى هذه النصوص البيّنة الجليّة ماذا فعلت؟ قالت: لها تفسير، فقال السلف: لا تفسر، ولهذا ماذا قال بعض السلف؟ قال: قراءتُه تفسيرُه، يعني أنه واضح، هكذا قرأه صلّى الله عليه وسلّم؛ وفهمه الصحابة؛ والصحابة هكذا نقلوه للتابعين وفهموه، لا تأتني بتفسير مُحْدَث، لأنّ الجهمية لمّا أرادت أنْ تنفي هذه الصفات ماذا فعلت؟ قالت: هذه النصوص لها تفسير؛ فقال: لا تفسر، وليس المقصود لا نفسر المعنى! لأنّ تفسير المعنى ثابت عن السلف، فالاستواء على العرش – على سبيل المثال – فسره السلف، وقالوا: الاستواء على العرش معناه العلو على العرش والارتفاع عليه، ولهذا لمّا سأل رجلٌ مالكَ بن أنس قال: يا أبا عبد الله؛ الرحمن على العرش استوى؛ كيف استوى؟ اشتد مالك رحمه الله حتى علاه الرحضاء – يعني العرق –، هل بلغ بالمسلمين الحدّ حتى يأتي بعضهم يسأل عن رب العالمين بكيف؟؟ لاحظ ماذا قال؛ قال: الاستواء معلوم، يعني معلوم المعنى، فلو أنك سألتني عن المعنى لأخبرتك، والكيف الذي تسأل عنه هو المجهول، يعني أنْ يقول أحد: أنا أريد أنْ تحدثني – والعياذ بالله – بكيفية يد الله؛ بكيفية استواء الله؛ نعوذ بالله، هذا لا يحل، ولهذا قال مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ولا أُراك إلّا رجل سوء؛ ثم أُمِرَ به فأخرج مِن المسجد"(١)، قال: أنت إنسان خبيث، تسأل في الأمة مثل هذا السؤال عن رب العالمين؟ تستحق أنْ تُعاقب وتُخرج مِن المسجد، فتفسيره قراءته كما قال السلف، لأنّ معناه جَلِيٌّ واضح، أمّا أنْ يُحدث له تفسير؛ وأنْ يؤتى بكلام يُبطل اللفظ البيّن الواضح مِن هذه النصوص؛ فلا شك أنّ هذا طريق الزائغين الضالين، ولهذا قال: "نقف على ما وقف عليه القرآن والسُّنَّة" يعني لا نتلقى ما يتعلق بنصوص صفات الرب إلّا مِن القرآن والسُّنَّة، ونقول: "الرحمن على العرش استوى" لاحظ الآية، نقول بجميع النصوص مثل قوله "الرحمن على العرش استوى، ويقول صلّى الله عليه

(١) رواه البيهقي في كتابه الأسماء والصفات (٨٦٧)، وقال الحافظ رحمه الله في الفتح (٤٠٧/ ١٣): "إسناده جيد".

وسلّم: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر»[1] وغيره مِن النصوص" ثم قال: "ومَن زعم غير هذا فهو معطل جهمي" المعطل هو الذي يعطل المعنى، وهذا يؤكد لك أنّ مراده بقوله " لا نفسره" أي تفسير الجهمية، يقول: مَن قال بغير هذا فهو معطل، لأنّ الجهميّ ماذا أراد بالتفسير؟ أنْ يعطل معناه الواضح، وأنْ يجعل اللفظ خارجًا لا معنى له، أو أنْ يأتي بمعنى على خلاف الظاهر الجليّ منه.

وأنْ لا نقول كما قالت الخوراج: "مَن أصاب كبيرة فقد كفر"! ولا نُكَفِّرُ بشيء مِن الذنوب، وإنما الكفر في تَرْكِ الخمس التي قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "بُني الإسلام على خمس: شهادة أنْ لا إله إلّا الله؛ وأنّ محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت".

.....

بدأ رحمه الله تعالى بالكلام عن الخوارج، الحقيقة أنّ الكلام عن الخوارج أهم مسألة في موضوع الخوارج أنْ يُضبط معنى الخوارج، هناك خبص عجيب في معنى الخوارج، يعني مَن يقول: الخوارج مَن يكفرون بالكبيرة! تعريفه قاصر جدًا، لأنه هناك خارجيٌّ لا يكفر بالكبيرة! يعني خرج مِن هذا الوصف، هذا غير صحيح، الخوارج اسم أطلقه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «تخرج خارجة على حين فُرْقَة مِن المسلمين»[2]، فالخوارج هم الذين يخرجون عن جماعة المسلمين، الخوارج الأوائل يكفرون بالمعصية، قد يأتي خارجيّ يخرج عن جماعة المسلمين؛ فيقول: السارق لا أُكَفِّرُه، الضابط الذي يضبط الخارجيّ هو الذي يخرج على جماعة المسلمين، ثم عقيدته قد تتلوّن، الخوارج على عدة فِرَق، الأزارقة؛ النجدات؛ الإباضية، أشكال، حتى نفس الإباضية، الآن المعاصرون يختلفون اختلافًا كبيرًا عن الإباضية – أصحاب عبد الله بن إباض –، عبد الله بن إباض على شرّه وفجوره لو أدرك الإباضية المعاصرين هؤلاء لقاتلهم، لأنهم معتزلة، وليسوا فقط مجرد خوارج! هم خوارج ومعتزلة، فالخارجي ضَبْطُه: مَن يخرج على جماعة المسلمين، لقوله

---

(١) صحيح البخاري (١١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٧٠٦) من حديث عليّ رضي الله عنه مرفوعًا، وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله، والبخاري (٣٦١٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

صلّى الله عليه وسلّم: «تخرج خارجة على حين فُرْقَة مِن المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»[(١)]، إذا عرفت ضبطَ الخارجي؛ فكون الخارجي تتغير عقيدته هذا لا يؤثر، ولهذا النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم جَعَلَ علامةَ الخوارج زمن الصحابة أنّهم يحلقون رؤوسهم، يعني حلقًا استئصالًا، يقول النووي وابن تيمية وشُرّاح الحديث؛ يقولون: هذه صفةٌ في أوائلهم، ولا يلزم أنْ تبقى في أواخرهم، فقد يأتي خارجي لا يحلق رأسه! فلا تجعل هذه الصفة صفةً مستمرةً في الخوارج؛ تقول: مَن لم يحلق رأسه ليس بخارجي! الأمور ليس بهذه السهولة، لأنّ الخارجي في بعض الأحيان لا يحلق رأسه، فالنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم أعطى أوصافًا للخوارج الذين سيدركهم الصحابة، فقال: «علامتهم التَّسْبِيْد»[(٢)] قال أبو داود: أي أنهم يحلقون رؤوسهم[(٣)]، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «آيتهم رجل يده كأنها ثدي امرأة»[(٤)]، خلق الله عزّ وجلّ يدَ هذا الرجل كأنها – سبحان الله العظيم – كأنها ثدي امرأة، فلهذا لمّا قاتل عليٌّ الخوارج وأبادهم قال: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم أخبرني بهذه العلامة فيهم، فبحثوا عنه في القتلى فقالوا: لم نجده![(٥)] قال: والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ، فبحثوا عنه فوجدوه تحت عدد مِن القتلى قد سقطوا فوقه[(٦)]، لأنّ عليًّا استأصلهم استئصالًا شديدًا جدًّا في النهروان، قَتَلَهم قَتْلَ إبادة رضي الله عنه، ولم يبق منهم إلّا عدد قليل جدًا، هذا العدد القليل على قِلّته استمر في الخروج حتى سقوط دولة بني أمية، وجاء عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّ الخوارج يستمرون

(١) سبق تخريجه، وأما جملة (تقتلهم أولى الطائفتين بالحق) فهي عند مسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) صحيح البخاري (٧٥٦٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) سنن أبي داود (٤/ ٢٤٤).

(٤) صحيح البخاري (٣٦١٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٥) في الأصل قال الشارح حفظه الله: "فقالوا: لم نجده يا رسول الله!" ويظهر أنه سَبْقُ لسان، والصواب ما أثبتُّه. والله أعلم.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٣٦١٠) بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا، وأحمد في مسنده (١١٧٩) بنحوه من حديث عليّ رضي الله عنه مرفوعًا، وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله.

حتى – نسأل الله العافية – «يلحق آخرهم بالدجال»[(١)]، يعني هم مِن الفِرَق التي تبقى إلى آخر الزمان – نعوذ بالله مِن حالهم ومحالهم –، الخوارج ضابطُهم ما قال صلّى الله عليه وسلّم: «تخرج خارجةٌ على حين فُرْقَة مِن المسلمين»[(٢)]، وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «مَن خرج عن الطاعة وفارق الجماعة؛ مات ميتةً جاهلية»[(٣)] هذا الضابط أنْ يخرج عن الطاعة، كيف يخرج عن الجماعة؟ أنْ يخرج على وِلَايَتِها، ولهذا في لفظ آخر: «مَن خرج عن السلطان شبرًا مات ميتةً جاهلية»[(٤)]، فالخروج على الجماعة يعني أنْ يخرج يخرج على جماعة المسلمين، لأنّ الجماعة المسلمون، كما قال عمر رضي الله تعالى عنه: "لا إسلام إلّا بجماعة، ولا جماعة إلّا بإمارة، ولا إمارة إلّا بالطاعة"[(٥)]، تأمّلْ هذه الكلمات العظيمة مِن هذا المُحَدّث، رواه الدارميُّ، لا إسلام: يعني لن يقوم للإسلام قائمة إلّا إذا وجدت جماعة، أمّا إذا لم توجد جماعة للمسلمين

---

(١) روى أحمد في المسند (٦٨٧١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ «كلما خرج منهم قرن قطع، حتى يخرج الدجالُ في بقيّتهم»، ولكن قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: "إسناده ضعيف؛ لضعف شهر بن حوشب، ثم إنه معلول كما سيأتي". انظر مسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٤٥٦).

وقريب منه حديث أحمد في المسند (١٩٧٨٣) من حديث أبي برزة رضي الله عنه مرفوعًا؛ قال فيه الشيخ شعيب الأرناؤوط: "صحيح لغيره دون قوله: "حتى يخرج آخرهم" وهي هنا مختصرة، توضحها الرواية الآتية برقم (١٩٨٠٨): "حتى يخرج آخرهم مع الدجال"، وإسناد هذا الحديث ضعيف لجهالة شريك بن شهاب). انظر مسند أحمد ط الرسالة (٣٣/ ٢٧)، وانظر صحيح وضعيف سنن النسائي (٤١٠٣).

لكن عند ابن ماجه (١٧٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «كلما خرج قرن قطع، أكثر من عشرين مرة، حتى يخرج في كلما خرج قرن قطع، أكثر من عشرين مرة، حتى يخرج في أعراضهم الدجال» والحديث حسن، و(أعراضهم): "جمع عَرْض – بفتح وسكون –، بمعنى الجيش العظيم وهو مستعار من العرض بمعنى ناحية الجبل، أو بمعنى السحاب الذي يسد الأفق. قاله السندي". انظر الصحيحة (٥/ ٥٨٣).

(٢) صحيح. رواه أحمد في المسند (٧٠٦) بنحوه من حديث عليّ رضي الله عنه مرفوعًا، وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله.

(٣) صحيح. السنة لابن أبي عاصم (٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في ظلال الجنة.

(٤) صحيح البخاري (٧٠٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٥) رواه الدارمي (٢٥٧)، وأعَلَّه الشيخ حسين أسد حفظه الله في تحقيقه.

يقيمون فيها أحكام الله؛ ويكون مسلمون في موضعٍ وفي مكان عليهم حاكم؛ فإنّ الإسلام بأسره لا يقوم، لأنه يكون مُفَرّقًا مشتتًا، لا إسلام إلّا بجماعة، إذًا الجماعة مهمة، اعلم أنّ الجماعة لا تكون إلّا بإمارة، يعني يستحيل أنْ تكون هناك جماعة إلّا إذا وجد عليها أمير، أمّا لو وجد عشرة ملايين لكن ليس عليهم أمير فهؤلاء ليس وضْعُهم وَضْعُ جماعة! وَضْعُهم وَضْعُ فُرْقَة، كما في حديث حذيفة رضي الله تعالى عنه – وهو في الصحيحين – لَمّا أخبر النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم عن التغير الذي سيكون؛ وأنهم سيكون حُكّامٌ قال فيهم صلّى الله عليه وسلّمَ: «دعاةٌ على أبواب جهنم مَن أجابهم إليها؛ قذفوه فيها» يعني إذا أطاعهم في المعصية فإنهم يقذفونه بالنار، قال: ما تأمرني إنْ أدركني ذلك؟ قال: «تَلْزَمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهم» يعني وإنْ كان إمامهم مِن الدعاةِ إلى النار! وكيف يدعو إلى النار؟ بأنْ يأمر بالمعصية؛ فإنْ أطعته دخلتَ النار، فلا تطعه في المعصية كما سيأتي إنْ شاء الله عزّ وجلّ وتبقى الجماعة، ماذا قال حذيفة الصحابي الفقيه قال: فإنْ لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال صلّى الله عليه وسلّم: «تعتزل تلك الفِرَق»[1] يعني إنْ لم يوجد حاكم؛ فإنهم فِرَقٌ، ما يكونون جماعة، لهذا – كما سيأتي – يُصبرُ على الحاكم فجوره وتسلطه وعتوه وظلمه وتَجَبُّرُه لا لسواد عينيه! لأجل أنْ تبقى الجماعة فقط، لهذا أعظم الناس شجاعة أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، صبروا على الحجاج بن يوسف الذي بلغ به التمرد والعتو مبلغًا هائلًا، ليس لأجل سواد عين الحجاج! ولا لتثبت دولة بني أمية! لا، لأجل أنْ تبقى جماعة، حتى الإمام أحمد رحمه الله الذي أُوذي الأذية الكبيرة جدًّا زمن الواثق حتى قال رحمه الله – مع أنه عُذِّبَ زمن المعتصم ولم يُعَذّب زمن الواثق – قال: "ما وجدت في زمن الواثق أعظم مما وجدت في زمن المعتصم" لأنّ الواثق قال: لا أراك، قال: غَيِّبْ وجهك عني؛ إياك أنْ أراك، فقهاء بغداد اجتمعوا – كما روى الخلال عن حنبل – وكان الواثق يمتحن الناس في هذه المسألة التي تقدمت – وهي مسألة مِن الكفر – في مسألة والعياذ بالله: القول بخَلْق القرآن، فقال أحمد: "ما تريدون؟ اجتمع الفقهاء عنده؛ قالوا: نريد أنّ هذا لا ولاية له! قال: "اتقوا الله"، يقوله أحمد في هذا الخليفة المتسلط – الذي تسلط هو والمعتصم قَبْلَه والمأمون – يقول: "اتقوا الله، ولا تشقوا عصا المسلمين حتى يستريح برّ أو يستراح

(١) صحيح البخاري (٧٠٨٤) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعًا.

مِن فاجر"[1] يعني يستراح مِن الفاجر؛ أنْ يميته الله عزّ وجلّ، يستريح الأبرار، أمّا جماعة المسلمين لا تشقوها، فقهاء بغداد اجتمعوا عند أحمد، ما قال: هذه فرصة! والله لألقنن بني العباس درسًا على ما عذبوني في السنين الماضية! لأنّ المسائل ليست مسائل هوى! وإنما المسائل مسائل خضوع للنص، وإلّا فزمن العباس تسلطوا على أحمد – وهو إمام أهل السُّنَّة رحمه الله في وقته – وما رعوا له شيبتَه ولا عِلْمَه رحمه الله –، يجتمع فقهاء بغداد ويُحتاج فقط لفتوى جماعية لإسقاط الواثق، قال: "اتقوا الله، ولا تشقوا عصا المسلمين"، يعني وإنْ كان هذا الحاكم الفاجر الظالم موجودًا متسلطًا عليّ وقد ذُقْتُ منه ومِن الخليفتين قَبْلَه ما ذقت؛ لكن اتقوا الله، لا تشقوا عصا المسلمين! حتى يستريح برّ أو يُستراح مِن فاجر، ما الذي حصل؟ مات الفاجر وجاء الله بالمتوكل، وقَلَبَ – رحمة الله عليهم – المسألة على الجهمية قلبًا، ومنع في الخلافة كلها قولَ الجهمية، هو تسلط على ابن أبي دؤاد – الذي تسلط على الإمام أحمد – وصادر جميع أمواله حتى مات فقيرًا، ونهى عن الكلام على طريقة الجهمية في الخلافة كلها، وعزّز قولَ أهل السُّنَّة، وانتهى قول المعتزلة وخبا – ولله الحمد – وخبت هذه الفتنة، قيل لأحمد في فترة المحنة: يا أبا عبد الله؛ ألسنا في فتنة؟ قال: "بلى ولكنها فتنة خاصة، خاصة بخليفة، يموت فيأتي غيره فتنتهي أو تخفُّ، فإذا وقعت الفتنة العامة انتُهكتِ المحارمُ وقُطِعَتِ السُّبُل"[2] هذا قول أحمد بن حنبل إمام أهل السُّنَّة، وقال رحمه الله تعالى – في ما رواه الخلال واللالكائي وذكره في أصول السُّنَّة –: "لا يجوز قتال السلطان، ومَن قاتله فهو على غير السُّنَّة"[3]، لأنّ السلطان هو الذي يُقاتَلُ مِن ورائه كما قال صلّى الله عليه وسلّم في صحيح مسلم: «الإمام جُنّة يقاتل مِن ورائه»[4]، فإذا قُوْتِل السلطان – وهو الذي يُفترض أنْ يكون القتال مِن ورائه – عُكِستْ المسألة، فقال رحمه الله: "لا يُقاتل السلطانُ، مَن فَعَلَ ذلك فهو مبتدع على غير السُّنَّة"، ينبغي أنْ تُضبط هذه الأمور وتترك العواطف، وأنْ يَضبط طالبُ العلم هذه المسائل الضبطَ العلمي – لا العاطفي –، والله يعلم أنّ أكثر ما يُكتب في هذا يُسخط

(١) السنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٣٤).

(٢) السنة لأبي بكر بن الخلال (١/ ١٣٣).

(٣) أصول السنة لأحمد بن حنبل (ص: ٤٦).

(٤) صحيح البخاري (٢٩٥٧)، صحيح مسلم (١٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

اللهَ مِن فوق سبع سموات، الذين يتكلمون في مسائل مثل هذه – في الولاية أو في غيرها – أحد ثلاثة أصناف، السُّنِّيُّ الذي يتقي الله عزّ وجلّ ويقول الحق، ويتوسط بين الحاكم والمحكوم، أو مماريءٍ مداهن يُداهن الحكام على حساب الرعية، أو مَن يُداهن الرعية على حساب الحكام لإسقاط الحكام؛ ونشر الفوضى؛ ويُترك القولُ الوسط – قول أهل السُّنَّة والجماعة –، ولا تعجب مِن قِلّة مَن هو على هذا؛ فإنّ الأمر كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]، وتحقيق هذه المسائل كما سيأتي في هذه الرسالة والرسائل التي بعدها – إنْ شاء الله – ستراه جليًا في كلام السلف، ومِن أخطر ما يكون في موضوع الخروج أنّ هناك منْ يخرج ولم يَرْمِ بسهم! ولم يحمل سيفًا! ولم يضرب برمح! بأنْ لا يعتقد أنّ لهذا الوالي خلافة شرعية، وبيعة ثابتة – حتى لو لم يقاتل –، قال أبو سعيد الخدري الصحابي الجليل في المصنف: "إيّاكم وميتة الجاهلية" قالوا" وما ميتة الجاهلية؟ قال: "أنْ تموت ولا إمام عليك!"[2]، يعني تعتقد أنّ هذا الحاكم الذي بايعه أهل العلم وأهل الحلّ والعقد؛ تقول: والله لن أسفك دمَ مسلم؛ لكن قناعتي أنّ هذا الرجل ليس له بيعة؛ أمّا أني أحمل سلاحًا؛ والله لا أحمل سلاحًا حتى ألقى الله! فيقال: أنت في هذا – إنْ مِتَّ – أنت مِتَّ ميتة جاهلية" ولهذا قال البربهاري رحمه الله – شيخ الحنابلة في زمنه الذي امتحن امتحانًا شديدًا في عقيدته –: "لا يحل له أنْ يبيت وهو يعتقد أنّه ليس له بيعة"![3] مجرد اعتقاد، يقول: لا تلزمني بيعته! يقول: هذا يكفي أنْ يكون الإنسان – نسأل الله العافية والسلامة – على حال مِن الخروج، ولهذا قال السلف: الخوارج نوعان، خوارج قَعَدَة، مَن هم القعدة؟ الذين يقعدون، لا يحملون السيف، وخوارج مقاتلة، قال أحمد: "والقَعَدَةُ أخبث"[4] لماذا أخبث؟ لأنهم هم الذين يتكلمون حتى يخرج الناس! فهم يتكلمون ويُحرّضون؛ وينام الواحد منهم بجانب امرأته وعنده أولاده والناس تختصم وتتقاتل! فهم قَعَدَة، لكنّ قعودهم فيه تحريض على القتال، فلهذا قال: "القَعَدَة أخبث" لأنهم يقعون ويحرضون، ويقولون

---

(١) الأنعام: ١١٦.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٧١٥٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه موقوفًا.

(٣) شرح السنة للبربهاري (ص: ٥٦).

(٤) مسائل الإمام أحمد – رواية أبي داود – (ص: ٣٦٢).

أشعارًا، ويزينون للناس الخروج؛ فيترتب على ذلك الخروج، لذلك لا يكون هناك خروج بالسيف حتى يسبقه خروج بالقول، فهذا أمر مهم جدًا في موضوع الخوارج أنْ يُضبط، ولهذا قال: "ولا نقول كما قالت الخوارج" لاحظوا العبارة الدقيقة "مَن أصاب كبيرة فقد كفر!" لاحظ العبارة، يقول: "ما نقول كما قالت" يعني أنّ هذه مِن مقولات الخوارج وليس هذا هو التعريف الدقيق للخوارج، لأنّ الخوارج عند الحُميدي رحمه الله معروفون، لكن مِن قولهم أنهم أهل شدة ومبالغة على العصاة، ولهذا يَسْهُل عليهم التكفير للحكام مثلًا بالظلم، المظالم التي تقع مِن الحكام في الدماء؛ في الأموال؛ في التعدي على الناس؛ في عدم إقامة العدل؛ هذه معصية يُكفّرون بها الحكام، ثم تفاقم أَمْرُ التكفير وأصلُ التكفير عند الخوارج الحكامُ، فبدأوا – قبحهم الله – بتكفير عثمان، ثم تكفير علي رضي الله تعالى عن أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم سلسلوها، يعني أصل مقولتهم في قولهم في عثمان رضي الله عنه، فهم قتلوا عثمان معتقدين كُفْرَه – نسأل الله العافية –، ثم قاتلوا عليًا معتقدين كفرَه، ثم لمّا قتلهم؛ كمنوا له واغتالوه رضي الله تعالى عنه متقربين باغتياله رضي الله عنه! متقربين باغتياله إلى الله عزّ وجلّ! – نسأل الله العافية والسلامة – ونعوذ بالله أنْ يزيغنا في الزائغين، وكانوا قد اتفق ثلاثة منهم، مِن طبيعة الخوارج الاغتيالات، ثلاثة منهم عبد الرحمن بن ملجم واثنان آخران قالا: في يوم كذا في صلاة الفجر يغتال أحدنا عليًا والثاني معاوية والثالث عمرو! فاتجه أحدُهم إلى مصر لاغتيال عمرو، والثاني للشام لاغتيال معاوية، والثالث لعليّ، أمّا ابن ملجم – أخزاه الله وحشا قبرَه نارًا – فتمكن مِن قتل عليّ رضي الله عنه، وهو الذي قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيه لعليّ: «أشقاها يا عليّ؛ صاحب الناقة» الذي قال تعالى في شأن عاقر ناقة ثمود «وأشقاها مَن يضربك على هذه؛ فيسيل الدم على هذه»[1]، يعني سيضربك على رأسك، حدد صلّى الله عليه وسلّم موقعَ الضرب حتى يسيل الدم على لحيتك، الذي كَمَنَ لمعاوية ضرب معاوية في الفجر، كلهم اتفقوا على أنْ يغتالوهم في الفجر، ضرب معاوية ضربةً غير ماضية؛ فضربه على أسفل ظهره فانقطع منه النسل لكنه لم يمت، الذي ذهب لمصر أتى في صلاة الفجر في الليل فضرب الإمام؛ وإذا بعمرو بن العاص رضي الله عنه لم يصل بهم الفجر وصلّى بهم خارجة، فقال: "أردتُ عمرو؛ وأراد الله خارجة!" فصارت في العرب مثلًا، لأنه كان يظن أنّ هذا عمرو بن العاص،

(١) صحيح. رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٦٠٦٩) من حديث عليّ رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (١٠٨٨).

فصارت مثلًا، قال: "ما أردت عمرو؛ فقتلت خارجة" وأنا لا أريد قَتْلَ خارجة؛ لكن أردتُ قتل عمرو! هذه حقيقة مقولة الخوارج، مِن مقولتهم – كما سنتم إنْ شاء الله بعد الصلاة – أنهم يقولون: مَن أصاب كبيرة فقد كفر، ويأتي الكلام عليه، لكن المهم ضبطُ موضوع الخوارج، لأنّ الأحاديث كما قال عليه الصلاة والسلام في الخوارج قال: «كلما خرج قرنٌ قُطِعَ؛ كلما خرج منهم قرن قُطِعَ»(١)، في حديث عبد الله بن عمر حتى عَدّ عشرة قرون(٢)، وفي حديث عبد الله بن عمرو حتى عَدّ عشرين قرنًا(٣)، حتى يلحق آخرُهم بالدجال – نسأل الله العافية –، نهاية الغلو والمبالغة يتبعون الدجال الذي يقول: "أنا الرب!"(٤) نسأل الله العافية، هذه نهاية الغلو، أنْ ينتقل الإنسان – نسأل الله العافية – مِن طرف إلى طرف مقابل تمامًا ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾(٥)، ليعتبر المؤمن، ويعلم أنّ أمر الاعتقاد أمرٌ كبير وشديد، وأنه يجب أنْ يُضبط الضبط الشرعي، وأنّ المخالفة فيه – كما قال الشافعي رحمه الله: "تَناظروا في شيء إذا أخطأ فيه أحدكم قيل: أخطأ – وهي مسائل الفقه – ولا تَناظروا في شيء إذا أخطأ فيه أحدكم قيل: كفرتَ!"(٦)، مسائل الاعتقاد خطيرة جدًّا، تُخطئ بعض الأحيان تَكْفُرُ، تُخطئ في بعض الأحيان تَبْتَدِعُ، لكن مسائل الفقه – لو قسمتَ قسمةً مِن قسمة المواريث –؛ قسمةُ الزوج في هذه المسألة النصف مِن الزوجة! قيل: أخطأتَ، لأنّ الزوجة لها أولاد، وإذا وُجِدَ لها أولادٌ فللزوج الربع، لا أحد يقول لك: كفرتَ! يقول: أخطأت، فمسائل الاعتقاد أَمْرُها شديد، نسأل الله أنْ يثبتنا وإياكم بالقول الثابت.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمدٍ وآله وصحبه وسلّم.

---

(١) حسن. ابن ماجه (١٧٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (٢٤٥٥).

(٢) مسند أحمد (٦٨٧٠) من حديث ابن عمرو مرفوعًا، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: "إسناده ضعيف؛ لضعف شهر بن حوشب، ثم إنه معلول كما سيأتي". انظر مسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٤٥٦).

(٣) حسن. رواه ابن ماجه (١٧٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا. انظر الصحيحة (٥/ ٥٨٣).

(٤) الحديث المشار إليه رواه أحمد في المسند (٢٣١٥٩)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٨٠٨).

(٥) يوسف: ١١١.

(٦) تبيين كذب المفتري (ص: ٣٤٣).

المجلس الثاني

وقف بنا الكلامُ عند قوله رحمه الله تعالى: "وأنْ لا نقول كما قالت الخوارج: مَن أصاب كبيرة فقد كفر"، الذنوب نوعان: ذنوب تسمى كبائر، وذنوب تسمى صغائر، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾(١)، ويقول عزّ وجلّ بيانًا للذنوب مِن حيث العموم – المُكَفِّر منها وغير المُكَفِّر –: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(٢)، فالشرك – الذي هو الأكبر – إذا لقي العبد به ربه فإنّ الله تعالى قد حَرَّم عليه الجنة وقد يأس مِن رحمة الله كما قال تعالى في الكفار: ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾(٣)، قال عزّ وجلّ عن عيسى عليه الصّلاة والسّلام: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهَّ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُّ عَلَيْهِ الجَنَّةَ﴾(٤)، هذا الذنب قد انقطع أَمَلُ صاحبه في المغفرة – نعوذ بالله مِن حال أهل النار –، الذنوب الأخرى هي على نوعين: منها ما هو كبائر كما ذكر الله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾(٥) في الآية ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ﴾(٦) في الآية الثانية ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ فعُلِمَ مِن قوله ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أنّ السيئات التي تُكَفَّرُ هي الصغائر وأمّا الكبائر فإنها تحتاج إلى توبة مستقلة، فإذا لقي العبدُ الموحد ربَّه بكبائر فقد أجمع أهل السُّنَّة على أنه تحت مشيئة الله بنص الآية، فإنْ شاء الله غفر له وإنْ شاء عاقبه، وقد يتلقاه تعالى برحمته – وإنْ كان شاربًا للخمر؛ وإنْ كان زانيًا؛ وإنْ كان ما كان – لأنّ الميزان في هذا عند الله عزّ وجلّ، ولا يُدْخَلُ بين الله وبين عباده، يعني لا يقال: يغفر لهذا ولا يغفر لهذا! هذا إلى الله سبحانه وتعالى، خالفت الخوارج في صاحب الكبيرة، وزعم الخوارج أنّ صاحب الكبيرة يكفر لأنهم يجعلون الذنب كفرًا، وبالغ الأزارِقة منهم فكفروا حتى بالصغيرة، وهذا يُبيّن

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) النساء: ٤٨.

(٣) العنكبوت: ٢٣.

(٤) المائدة: ٧٢.

(٥) النساء: ٣١.

(٦) الكهف: ٤٩.

لك معنى قوله صلى الله عليه وسلم في الخوارج «سُفهاء الأحلام»(١) لأنّ هل هناك أحد لا يقع منه صغيرة أصلًا؟ لا يمكن ولا مِن الأزارِقة أنفسهم، ومقتضى كلامهم أنّ كل مَن على الأرض – نسأل الله العافية – كافر، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: «كل بني آدم خطّاء»(٢)، لابُدّ أنْ يقع الخطأ، فحاصل الأمر أنّ الخوارج لجُّوا وعاندوا وبالغوا في أَمْرِ صاحب الكبيرة، ومنه خرجت المرجئة – وهي تيار قابل الخوارج – فسهّلوا مِن أَمْرِ الكبائر؛ حتى قال غُلاتُهم: إنّ الإيمان إذا تحقق عند العبد؛ فإنه لا تضره المعصية! نسأل الله العافية والسلامة، فالخوارج قَنّطوا الناس؛ وأولئك جرّأوا الناس على المعاصي، ومنهج أهل السُّنَّة – رحمة الله تعالى عليهم وثبتنا على منهجهم – هو الوسط، وسط كما ذَكَرَ شيخ الإسلام قال: "الإسلام وسط في الأديان، وأهل السُّنَّة وسط في الفِرَق"(٣) وساق أمثلة كثيرة على هذا – أنّ أهل السُّنَّة وسط –، لأنّ الضلال يكون بأحد طريقين، بالخروج عن الطريق المستقيم – بالزيادة عليه أو بالنقص عنه –، ولهذا جاء عن الأوزاعي أَثَرٌ نافع جدًا يقول: "إن للشيطان مَحَجَّتَين – يعني طريقين – لا يبالي أيهما سلك العبد، غلوّ أو تقصير" لأنّ مراده أنْ يزيغ الناس عن الطريق المستقيم، فكونهم يغلون ويكونون خوارج؛ أو هم يقصرون ويكونون مرجئة؛ المهم عند الشيطان أنْ يزيلهم عن الصراط الذي قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾(٤)، فالخوارج بالغوا في أَمْرِ الكبائر هذه المبالغة حتى أخرجوا صاحب الذنب مِن الإيمان – نسأل الله العافية والسلامة –، وأقوى ما يُرَدُّ به عليهم – كما ذَكَرَ شيخ الإسلام رحمه الله – أنّ لأهل الكبائر حدودًا، السارق تُقطع يده، والقاذف يُجلد، والزاني البِكْر يُجلد ويُغَرّب، وإذا كان مُحْصَنًا رُجم وقُتِلَ لا على سبيل الحدّ الكفريّ؛ ولكن على سبيل الحدّ الذي يُقام عليه بصفته محصنًا، بدليل أنه إذا كان بكرًا فإنه لا يُقتل، يقول شيخ الإسلام: "من أعظم ما يُرَدُّ به على الخوارج الحدود"، والخوارج مقتضى كلامهم أنّ السارق والقاتل

---

(١) صحيح البخاري (٣٦١١) من حديث عليّ رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) حسن. رواه الترمذي (٢٤٩٩) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الترغيب والترهيب (٣١٣٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤١).

(٤) الأعراف: ١٦، ١٧.

والقاذف والزاني مثله مثل المرتد؛ فأي معنى للحدود؟ المرتد يُقتل لزامًا، فكون أصحاب الذنوب لهم حدود خاصة؛ فهذا يدل على بطلان قول الخوارج بلا شك.

ثم قال رحمه الله: "ولا نُكَفِّرُ بشيء مِن الذنوب" هذا هو الأصل عند أهل السُّنَّة؛ أنّ الذنوب لا يُكَفَّرُ بها – الذنوب المعروفة – مثل شرب الخمر والسرقة ونحو ذلك، قال: "إنما الكفر في تَرْكِ الخمس" ومراده بالخمس: المذكورة في حديث «بُني الإسلام على خمس»[1] وهذا قول بعض السلف – وهو رواية عن أحمد رحمه الله – أنّ مَن ترك أيًّا مِن هذه المباني فإنه يَكْفُرُ، القول الثاني: أنّ الذي يترك الصلاة والزكاة هو الذي يكفر دون مَن يترك الصوم والحج، والقول الثالث: أنّ مَن يترك الصلاة والزكاة – إنْ قاتل عليها – يكفر؛ وإنْ لم يُقاتل عليها لم يكفر، القول الرابع – وهي الرواية الصحيحة – التي دلت عليه النصوص وعليه اتفاق الصحابة رضي الله عنهم أنّ تَرْكَ الصلاة وحده هو الذي يكون به الكفر، وهذا فيه أدلته كثيرة وبسطها شيخ الإسلام رحمه الله في الفتاوى وبَيَّنَ وجوه الدلالة على أنّ تَرْكَ الصلاة كُفْرٌ، والمقام يَقْصُرُ عن الإطالة في مثل هذا، فهو رحمه الله اختار إحدى الروايات: أنّ الكفر يكون في تَرْكِ الخمس.

قال رحمه الله: فأمّا ثلاثٌ منها فلا يُناظرُ تاركُه: مَن لم يتشهد، ولم يصلّ، ولم يَصُم لأنه يؤخر شيء مِن هذا عن وقته، ولا يجزئ مَن قضاه بعد تفريطه فيه عامدًا عن وقته، فأمّا الزكاة فمتى ما أداها أجزأت عنه، وكان آثمًا في الحبس، وأمّا الحج فمَن وجب عليه ووجد السبيل إليه وجبَ عليه، ولا يجب عليه في عامه ذلك حتى لا يكون له منه بُدّ، متى أداه كان مؤديًا ولم يكن آثمًا في تأخيره إذا أداه كما كان آثمًا في الزكاة، لأنّ الزكاة حقّ لمسلمين مساكين حبَسَه عليهم، فكان آثمًا حتى وصل إليهم، وأمّا الحجُّ فكان فيما بينه وبين ربه إذا أداه فقد أدى، وإنْ هو مات وهو واجد مستطيع ولم يَحجّ سأل الرجعةَ إلى الدنيا أنْ يحجّ، ويجب لأهله أنْ يَحُجّوا عنه، ونرجو أنْ يكون ذلك مؤديًا عنه كما لو كان عليه دين فقُضي عنه بعد موته.

.....

(١) صحيح البخاري (٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا.

تقدم أنّ الروايات في هذا على ما ذكرنا، كلامه هنا يقول: أنّ ثلاث – يعني مِن هذه – "فلا يُناظر عليها" وهي الشهادتان – وهذا بالإجماع – أنّ مَن لم يقل: أشهد أنْ لا إلـه إلا الله؛ وأنّ محمـدًا رسـول الله فـلا يُعَـدُّ مسلمًا حتى يتشهد، قال: "ولم يصل"، وذلك بالآيات والأحاديث الدالة على أنّ تَرْكَ الصلاة كُفْرٌ، قال: "ولم يصم" وعلل اختياره في الصوم بقوله "لأنّه لا يؤخَّر شيء مِن هـذا عـن وقتـه" يقـول: رمضـان في الشـهر التاسع؛ فإذا هو تَرَكَه فإنه في الشهر العاشر أو الحادي عشر ليس هو رمضان! قال: "فهذه لا يُناظر تاركُهـا، ولا يجزئ مَن قضاه بعد تفريطه فيه عامدًا عن وقته" يقول: لا يجزئ، لأنّ الله فرض الصـوم في رمضـان ولم يفرضه في شوال أو في محرم وغيره – وإنْ كان يلزمه شرعًا قطعًا – أنه والعياذ بالله إذا فَرَّط متعمـدًا وأفطـر فإنه يقال: تُبْ إلى الله عزّ وجلّ وصُمْ بَدَلَ الأيام التي لم تُصَم – وإنْ كان رمضـان لا يمكـن أنْ يُعْـدَل بـه – لكن الرجوع إلى الحق خير مِن التمادي في الباطل، قال: "أمّا الزكاة فمتى أداهـا أجـزأت عنـه وكـان آثمًا في الحبس" يعني في تأخيرها، ومراده أنه لا يَكْفُرُ بها، وأمّا الحجّ فمَن وجب عليـه – وهـو المسـتطيع – لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ﴾[1] فلا يجـب الحـجّ عـلى كـل أحـد وإنـما يجـب عـلى المستطيع، "فمَن وجب عليه ووجد السبيل" والسبيل الذي يوصل إلى الحجّ أنْ يكون عنـده زاد وأنْ يكـون عنده راحلة، واختار كثير مِن أهل العلم أنّ المرأة التي لا تجـد مَحْرَمًـا لا يلزمهـا الحـجّ، لأنهـا في حُكْـمِ غـير المستطيع، ولا يحلّ لها أنْ تسافر للحج إذا كانت لا مَحرم لها والله تعالى قد أعذرها، والقـول بأنهـا تسـافر مـع رفقة مأمونة مِن النساء قول لبعض أهل العلم لا شك، لكنّ الصواب عدمه، فلا تكلـف هـذه المسـكينة أنْ تأتي مِن الشام؛ مِن العراق؛ مِن مصر وخراسان مع نساء! إنما لابُدّ مِن مَحرم، فإذا لم يوجد لها مَحرم؛ فإنّ الله ما كلفها وتكون كمن لا يستطيع، قال: "ووجد السبيل إليه وجب عليه"، ثم قـال: "ولا يجـب عليـه في عامـه ذلك" هذا قول لبعض أهل العلم أنّ الحج لا يجب على الفور، يعني لا يجب المباشرة، وقال آخرون: إنّ الحجّ يجب على الفور لأنّ الإنسان لا يدري ما يَعْرِضُ له، فإذا تمكن فإنه يحجّ، لأنـه مـتمكن هـذه السَّـنَة وقـد لا يتمكن العام القابل، قادر على نفقة الحج هذه السَّنَة وقد لا يقدر عليه في العام القادم، فإذا جاء العام القـادم وهو غير قادر أو افتقر بعد غناه قالوا: فقد فَرَّط! لأنه كان بإمكانه أنْ يحجّ في العام الذي قبله، وقال آخرون:

(١) آل عمران: ٩٧.

لا يكون مفرطًا لأنّ الحجّ ليس على الفور، لأنّ المسألة في الخلاف: هل الحجّ على الفور؟ يعني يلزم مباشرةً؟ أو أنّه على التراخي؟ فهو رحمه الله يرى أنه إذا أداه ولو بعد حين لم يكن آثمًا في تأخيره، وفَرَّقَ بين الحجّ وبين الزكاة بأنّ الزكاة حقّ لمسلمين – هذا وجه الفَرْق –، لأنه يمنع هذا الحق عن مستحقه، لأنّ الزكاة في مالك ليست لك، فإذا كان عندك أربعون ألفًا فمنها ألف ليست لك، حَالَ عليها الحولُ هذه ليست لك، يجب أنْ تخرجها، وليس لك أنْ تَعُدّها في مالك، لأنه في كل أربعين ألفًا هناك ألف، فإنّ الزكاة ربع العشر ـ في الأموال، يعني اثنين ونصف في المئة، في كل أربعين ريالٌ، في الأربعين الثانية ريال، هذه الثمانون فيها ريالان، مئة فيها ريالان ونصف، ففي كل أربعين يكون عليك ريال واحد، قطعًا أربعون وحدها لا تُعَدُّ نصابًا لكنّ المقصود بيان المقدار، فإذا كان عندك مثلًا أربعون ألفًا فمنها ألف ريال هذه ليست لك، حبسك لها وتأخيرك لها أنت به آثم لأنها ليست لك، قال: "أمّا الحجّ فإنه أَمْرٌ بينه وبين الله" فلو أداه مثلًا بعد عشر سنين يقول: "هذا بينه وبين الله" بخلاف حقّ الناس، قال: "وإنْ هو مات وهو واجدٌ مستطيع" يعني أنّ الاستطاعة تحققت لكنه مات ولم يحجّ "سأل الرجعة إلى الدنيا كي يحجّ" أي تمنى أنه يعود إلى الدنيا ليحجّ، قال: "ويجب لأهله أنْ يَحجوا عنه أو أنْ يُحججوا عنه" يعني يحجّ أحدُهم – وهذا الأحسن إنْ أمكن – أو أنْ يوكلوا ثقة مأمونًا ليحجّ عنه، قال: "ونرجو أنْ يكون ذلك مؤديًا عنه" وإخراج الحج يكون مِن ماله هو، فالتَّرِكَة لا يُقْسَمُ منها النصيب المرتبط بالحجّ، لأنّ الحجّ أَمْرٌ واجب عليه؛ فيُخرج مِن ماله هو، فإنْ تَبَرَّع أحد مِن قرابته وحَجَّ عنه فأجرُه على الله، قال: "كما لو كان عليه دين فقُضِيَ عنه بعد موته"، وبذلك انتهى كلام الحُميدي رحمه الله تعالى في هذه الرسالة، ونبدأ إنْ شاء الله تعالى في الرسالة الثانية.

الرسالة الثانية نقرأ مقدمتها

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام اسماعيل بن يحيى المُزَنِيّ رحمه الله تعالى:

عصمنا الله وَإِيَّاكُم بالتقوى، ووفقنا وَإِيَّاكُم لموافقة الهدى، أمّا بعد؛ فَإِنَّك أصلحك الله سَأَلتنِي أَن أُوْضِح لَك مِن السُّنَّة أَمْرًا تُصَبِّرُ نفسَك على التَّمَسُّك بِهِ، وتدرأ بِهِ عَنْك شُبَه الأَقَاوِيل وزخرف الأباطيل وزيغ محدثات الضَّالّين، وَقد شرحتُ لَك مِنهاجًا مُوْضِحًا مُنِيْرًا، لم آلُ نَفسِي وَإِيَّاك فِيهِ نُصْحًا، بدأتُ فِيهِ بِحَمْد الله ذِي الرُّشْد والتسديد.

.....

الإمام اسماعيل المزنيّ رحمه الله مِن أنبل تلاميذ الإمام الشافعي – أبي عبد الله؛ محمد بن إدريس الإمام المشهور –، وكان المزنيّ رحمه الله في العراق، وعلى طريقة أهل العراق في الخوض في المحدثات، فسمع بالشافعي أتى إلى المسجد فجاء – وفي الحقيقة هذه القصة فيها عبرة كبيرة جدًا لطلبة العلم والشباب – جاء للشافعي وسأله عن هذه المحدثات التي يخوض فيها الناس مِن أقاويل المعتزلة ونحوها، قال الشافعي رحمه الله له: أين أنت؟ قال في مسجد بغداد، قال: لا أنت في تاران – موضع مِن المواضع في البحر تهلك فيه السفن –، يقول: هذا الخوض منك أنت مثل مَن يصل ذلك الموضع التي تهلك فيه السفن، ما هذه المسائل المحدَثة التي تخوض بها، ثم قال الإمام الشافعي سأله سؤالًا يتعلق بالوضوء فأخطأ المزنيّ، فقال الشافعي: أخطأتَ، ثم فرعه على مسألة ثانية، فأجاب المزنيّ فأخطأ، ثم ثالثة ثم رابعة ثم خامسة، في كلها قد أخطأ، ثم قال الشافعي – وهذا موضع العبرة –: شيء تحتاجه في اليوم خمس مرات تخطأ فيه ولا تعرف أحكامه وتخوض في هذه المسائل!! هذا هو وجه العبرة الآن، أنّ الناس قد يخوضون في أمور ويشتغلون في أمور تَضُرُّهم ولا تنفعهم، ويتركون ما أوجب الله تعالى عليهم مِن العلم المُتَعَيِّن الواجب أنْ يعرفوه في وضوئهم وصلاتهم وصومهم وحَجِّهم، وأعظم مِن ذلك وأجل أمور اعتقادهم، مثل هذه المسائل العِظَام التي الإنسان إذا خرج عن الوسط صار خارجيًا أو صار مُرجئيًا، إذا خرج عن القول الصواب في الصحابة فبالغ فيهم وغلا فيهم أو صار رافضيًا، وهكذا، فأثرت هذه الموعظة في المزني جدًّا، ولَزِمَ الشافعيَّ – رحم الله

الإمامين وأئمة المسلمين – حتى صار مُلَخِّصَ كُتُبِه، واختصر كتابَه الأم – وهو مختصر المزنيّ – وهو موجود طبعًا؛ أي كتاب الأم موجود، وبلغ مِن عناية الناس بمختصر المزنيّ مِن حبهم لعلم الشافعي – رحم الله الجميع – أنّ المرأة إذا خُطبت يكون في مهرها نسخة مِن مختصر المزنيّ – الذي كان في السابق يسأل تلك الأسئلة التي لا خير فيها –، وهذه فائدة الاتصال بأهل العلم، فرفع الله ذِكْرَ المزنيّ لمّا اتصل بأهل العلم – مثل هذا الإمام الجليل –، وإلّا فقد كان على طريقة العراقيين يخوض في مثل هذه المسائل التي لا خير فيها، وهذا مِن فوائد الاتصال بأهل العلم وأَخْذِ العلم، ولا سيما أهل العلم الكبار مِن ذوي التجربة والتقوى والعلم الراسخ، فصار المزنيّ رحمه الله فعلًا مِن أئمة السُّنَّة، وكان المزنيّ رحمه الله يكره أسئلة الشباب، لأنهم يأتون ويمتحنونه، فيقولون لإمام كبير مِن أئمة السُّنَّة: ما تقول في القرآن؟ فكان لا يجيبهم ويأبى أنْ يجيبهم، فقيل له: يا أبا ابراهيم؛ الناس يسألونك في القرآن ولا تجيب! يعني إنْ كانت هذه المسألة الخطيرة فأنت لا تجيب فأنت مِن المعتزلة! قال: إني إذا أتاني هؤلاء الأحداث فإني لا أجيبهم، يأتون إلى عالم مِن علماء السُّنَّة فيقولون: ما قولك؟ يعني إذا أتاك أحدهم فيقول: ما تقول في الصحابة؟ تقول: هذا سؤال يوجه لمثلي؟؟ مثلي لا يقال له هذا الكلام، أنا لست رافضيًا حتى توجه لي هذا الكلام! لست في محل التهمة حتى توجه لي ما أقول في الصحابة أو في أمهات المؤمنين! هذا سؤال في غير محله، يقول: أنا رجل مِن أهل السُّنَّة، على طريقة الإمام الشافعي رحمه الله يأتيني أحداث صغار يمتحنوني! فأنا لا أجيبهم، فلهذا كان يُظن به أنه بتركه الرَّدّ عليه يظنون أنه يُخفي معتقدًا، فيقول: إنه إذا أتاني هؤلاء الأحداث فسألوني فلا أجيبهم، ومذهبي في القرآن مذهب الشافعي، يعني أني على طريقة الإمام الذي تعلمتُ عليه – يعني مذهب الإمام الشافعي رحمه الله – قال: وما مذهب الإمام الشافعي؟ قال: إنّ القرآن كلام الله مُنَزَّلٌ غير مخلوق؛ ومَن قال: مخلوق فهو كافر، نفس عقيدة أهل السُّنَّة، لكن يقول: يأتيني أحد يمتحنني مِن هؤلاء الأحداث الصغار؛ فإني لا أجيب، يعني أني لست محلًّا للظنّ والتهمة، وعملها معه حماد بن زيد رحمه الله، فقال له على الملأ: ما تقول في الإيمان؟ فقال: قول وعمل، قال: ما تقول في القرآن؟ قال: ما تقول في كذا؟ فأجاب بأجوبة أهل السُّنَّة، ثم قال: يا حماد؛ تمتحني بهذا الامتحان؟ فقال: إني أردتُ أنْ يعرف الناس، قال: أنا أعرف عقيدتك أنها صواب لكن يشيع عنك بسبب تركك الجواب على هؤلاء الأحداث يشيع عنك ما لا يليق، فأردتُ أنْ يكون

جوابك على الملأ، وهو تَعَجَّبَ مِن حماد! كيف تسألني مثل هذه الأسئلة؟؟ هل أنا في موضع التهمة حتى تسألني عن الإيمان وعن القرآن وعن مثل هذه المسائل، فالشاهد أنه رحمه الله تعالى سأله بعضُهم أنْ يوضح له السُّنَّة، ولهذا سمى كتابه رحمه الله تعالى بشرح السُّنَّة، وهذا ينصُّ عليه بعض المصنفين فيُسمى سببُ التأليف، فقال: "إنك أصلحك الله سألتني أنْ أوضح لك مِن السُّنَّة أمرًا" وقلنا: إنّ السُّنَّة هنا في هذا الموضع في هذه الكتب المراد بها العقيدة – التي خلافها بدعة وضلالة –، "تُصَبِّرُ نفسك على التمسك به وتدرأ به عنك شُبَه الأقاويل" ثم قال: "وقد شرحتُ لك منهاجًا موضحًا منيرًا لم آلو – أي لم أقصر – لم آلو نفسي – وإياك فيه نصحًا، بدأتُ فيه بحمد الله بالرُّشد والتسديد" ثم ذكر الاعتقاد.

قال رحمه الله: الحَمدُ لله أَحَقُّ مَن بُدِءَ، وَأولى مَن شُكِر، وَعَلِيهِ أُثني، الوَاحِد الصَّمد الَّذِي لَيْسَ لَهُ صَاحِبَة وَلَا ولد، جلّ عَن المثيل، فَلَا شَبيه لَهُ وَلَا عديل، السَّمِيع البَصِير العَلِيم الخَبِير المنيع الرفيع، عَالٍ على عَرْشه فِي مجده بِذَاتِهِ، وَهُوَ دَان بِعِلْمِهِ مِن خلقه، أَحَاط علمُه بالأمور، وأنفذ فِي خلْقِه سَابقَ المَقْدُور، وَهُوَ الجواد الغفور و﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[1]، فالخَلْق عاملون بسابق علْمِه، ونافذون لِمَا خلقهمْ لَهُ مِن خير وَشرّ، لَا يملكُونَ لأَنْفُسِهِمْ من الطَّاعَة نفعًا، وَلَا يَجدونَ إِلَى صَرْفِ المَعْصِيَة عَنْهَا دفعًا، خَلَقَ الخَلْقَ بمشيئته مِن غير حَاجَة كَانَت بِهِ، وخَلَق المَلَائِكَة جَمِيعًا لطاعته، وجَبَلَهم على عِبَادَته، فَمنهمْ مَلَائِكَة بقدرته للعرش حاملون، وَطَائِفَة مِنْهُم حول عَرْشه يُسَبّحون، وَآخَرُونَ بِحَمْدِهِ يُقَدِّسُون، وَاصْطفى مِنْهُم رسلًا إِلَى رُسُلِه، وَبَعض مدبرون لأَمره، ثمَّ خلق آدم بِيَدِهِ وَأَسْكَنَهُ جنته، وَقبل ذَلِك لـلْأَرْض خَلَقَه، وَنَهَاهُ عَن شَجَرَة قد نَفَذَ قَضَاؤُهُ عَلَيْهِ بأكلها، ثمَّ ابتلاه بِمَا نَهَاهُ عَنهُ مِنْهَا، ثمَّ سَلَّطَ عَلَيْهِ عدوه فأغواه عَلَيْهَا، وَجَعَلَ أكله لَهَا إِلَى الأَرْض سببًا، فَمَا وَجد إِلَى تَرْكِ أكلِهَا سَبِيلًا، وَلَا عَنهُ لَهَا مَذهبًا، ثمَّ خَلَقَ للجنة مِن ذُرِّيَّته أَهلًا، فهم يعملون بأعمالها، وإنما بمشيئته يعملون، وبقدرته وبإرادته ينفذون، خَلَق مِن ذُرِّيَّته للنار أَهلًا، فخَلَق لَهُم أعينًا لَا يبصرون بهَا، وآذانًا لَا يسمعُونَ بهَا، وَقُلُوبًا لَا يفقهُونَ بهَا، فهُم بذلك عَن الهدى محجوبون، وبأعمال أهل النَّار بسابق قَدَرِه يعْمَلُونَ.

---

(١) غافر: ١٩.

.....

بدأ رحمه الله تعالى بحمد الله، وهذا هو المشروع أنْ يُحمدَ الله عزّ وجلّ أو أنْ يُسمى؛ وأنْ لا تُبدأ الكتبُ والرسائلُ والخطبُ بدون ذِكْرِ الله عزّ وجلّ وتسميته؛ تأسّيًا بأعداء الله مِن أهل الكفر – كما هي كتب ملاحدة الغرب وأضرابهم –وتشبه بهم مَن قَلَّ نصيبُه مِن العلم والعقل، فرأوا أنّ الكتبَ تُبدأ هكذا بدون تسمية أو حَمْدٍ؛ هذا لا شك أنه مِن التقليد القبيح في مسألة مِن مسائل الكفر التي تميزوا بها لجلافتهم وقلة علمهم بالله عزّ وجلّ بل انعدامه.

فقال رحمه الله: "الحمد لله أحقُّ مَن بُدِءَ – سبحانه وتعالى – وأولى مَن شُكِر، عليه أثني، الواحد الصمد الذي ليس له صاحبة – أي زوجة – ولا ولد، جلّ سبحانه عن المثيل فلا شبيه له ولا عديل، السميع البصير العليم الخبير المنيع الرفيع، عالٍ على عرشه" بدأ رحمه الله ببيان الكلام عن العلو، فبيّن أنّ الرب سبحانه وتعالى على عرشه حقيقة؛ وأنه سبحانه وتعالى مستوٍ عليه سبحانه وبحمده، لأنّ الاستواء على العرش هو العلوّ عليه – كما تقدم –، والارتفاع عليه، قال: "وهو دانٍ بعلمه مِن خلقه" مع كونه تعالى على عرشه فوق السماوات إلّا أنّ عِلْمَه عزّ وجلّ محيط بهم، وقد ذَكَرَ الله تعالى علوَّه ومعيّتَه في غير موضع مِن القرآن كقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[1]، فهو لا تخفى عليه مِن خَلْقِه سبحانه وتعالى خافية، وهو مع ذلك سبحانه على عرشه مستوٍ، ولهذا في حديث الأوعال أنه سبحانه وتعالى على عرشه لا يخفى عليه مِن أمركم شيء – أو كما قال عليه الصّلاة والسّلام –[2].

"أحاط علمه بالأمور وأنفذ في خلْقِه سابقَ المقدور" أي أنه سبحانه وتعالى قد عَلِمَ كلَّ شيء، فهو محيط به علمًا سبحانه وتعالى، وفيما يتعلق بقَدَرِه؛ قدَرُه سابقٌ، وتقدم الكلام على أَمْرِ القدر، وأميل الآن الحقيقة إلى عدم تكرار ما ذكرناه في الرسالة السابقة، كانت النية في كل رسالة أنْ أتكلم عن القدر مِن جديد وعن

(١) الحديد: ٤.

(٢) حديث الأوعال رواه الترمذي (٣٣٢٠) وأحمد (١٧٧٠) وغيرهما من حديث العباس رضي الله عنه مرفوعًا، وقد ضعّفه الشيخ الألباني رحمه الله في الضعيفة (١٢٤٧)، وكذا الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تحقيق المسند.

الإيمان مِن جديد لكن هذا قد يكون فيه تكرار ويمضي فيه شيء كثير مِن الوقت، فنُحيل على ما ذكرناه في الرسالة السابقة الأولى، تقدم الكلام عن القدَر ونركز هنا في الرسالة على بيان بالمقصود بكلماته، فيقول رحمه الله تعالى: "أنفذ في خلْقِه سابقَ المقدور" أي أنّ القدَر سابق، أي أنّ القدَر مكتوب قَبْلُ – كما تقدم بيانه –، "وهو الجواد الغفور؛ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور" وهذا السجع منه رحمه الله تعالى ومِن بعض أهل العلم إذا لم يكن متكلفًا كمثل هذه الطريقة ما فيه إشكال، إنما يُذَمُّ السجع إذا كان فيه شيء مِن التكلف والإضجار، أمّا إذا كان على مثل هذه الوتيرة التي ليس فيها شيء مِن التكلف فلا إشكال فيه، وبه الجواب عن السبب في وجود بعض السجع في الأذكار مثل: «اللهم إني أعوذ بك مِن عِلْم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ومِن نفس لا تشبع»[1] ونحوها؛ فإنّ هذا سجع غير متكلف، أمّا السجع المتكلف فإنه مذموم، لمّا كان القدر سابقًا قال: "فالخلق عاملون بسابق علْمِه" يعلم سبحانه وتعالى أنّ هؤلاء سيعملون مِن الأعمال كذا، "ونافذون لِمَا خلقهم له مِن خير وشرّ" سبحانه وتعالى، أي أنهم عاملون بما قد عَلِم سبحانه وتعالى أنهم سيعملونه مِن خير أو شرّ، "لا يملكون لأنفسهم مِن الطاعة نفعًا" يعني أنّ الله إذا هداك ومَنّ عليك وأكرمك بالسُّنَّة والهداية؛ فلا تظنن أنّ ذلك مِن آثار نباهة أو ذكاء أو فِطْنَة – معاذ الله – إنما هذا توفيق مِن الله عزّ وجلّ، ولهذا أهل الجنة إذا دخلوها قالوا – جعلنا الله وإياكم ووالدينا وذرارينا مِن قائليها – ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[2]، فهو فَضْلٌ مِن الله ومِنّة أنْ يُعين الله العبد على الطاعة وعلى الهداية، "ولا يجدون إلى صَرْفِ المعصية عنهم دفعًا" يعني أنّ الله تعالى إذا قَدَّرَ أنْ يقع مِن العبد معصية فإنّ هذا أَمْرٌ سابق في المقدور، وهذا قلنا أنه يتعلق بالقسم الأول المرتبط بالرب، ما الذي يتعلق بالعبد والذي أمره الله تعالى به ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾[3] أنْ يتوب كلما وقع منه الذنب، حتى لو تكرر منه الذنب، لأنّ هذا مما يَسأل عنه الناس، يقول واحد: أنا وقعت في معصية ثم تبت؛ لكنْ ضَعُفَتْ نفسي فرجعت للمعصية؛ ما الحل؟ الحلُّ أنْ تتوب، لا يمكن أنْ تُفْتَى إلاّ أنْ تتوب، لا يمكن أنْ يقال أنت عصيتَ عشر

(١) صحيح مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) الأعراف: ٤٣.

(٣) النور: ٣١.

مرات؛ في كلّ مرة تتوب! أنت متلاعب ابق على المعصية! هذا لا يمكن أنْ يقولها واحد، ولهذا كلما عصى العبد ووقع منه الذنب؛ فإنّ علاج الذنب أنْ يتوب منه، قال الحسن رحمه لمّا قيل له: العبدُ يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب إلى متى؟ قال: "ما أعلمُ المؤمنَ إلّا هكذا"(١)، نحن نعرف المؤمنين إذا وقع الذنب منهم لا يتوبون! هل يمكن أنْ يقال لا تتب؟؟ معاذ الله، ما نعلم المؤمن إذا وقع منه ذنب ثم تاب عليه ثم إذا رجع إلى نفس الذنب ضَعُفَتْ نفسُه – نسأل الله أنْ يُعيذنا مِن شرور أنفسنا ومِن سيئات أعمالنا –، فوقع الإنسان في الذنب مرةً أخرى حتى لو كان فاحشًا حتى لو كان ما كان، عُدْ إلى الله، لا تمتْ وأنت على هذه الحال، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾(٢)، فالحاصل أنّ المعصية إذا وقعت مِن العبد لا شك أنها مقدرة مِن الله، هذا مِن القسم الأول المرتبط بالرب، لكنْ ما المرتبط بالعبد؟ أنّ عليه أنْ يعمل وأنْ يتوب، ثم قال: "خَلَقَ الخَلْقَ بمشيئته مِن غير حاجة كانت به" يعني أنّ الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾(٣) ليس لله حاجة سبحانه وتعالى في خَلْقِ الخَلْقِ، فلم يخلقهم عزّ اسمه لا إله إلّا هو ليتكثّر بهم مِن قِلّة ولا ليتقوى بهم مِن ضعف، بل هو غنيٌّ عنهم سبحانه وعن طاعاتهم، ومعاصيهم لا تضره سبحانه وتعالى أصلًا، فلم يخلقهم محتاجًا إليهم، وهكذا الملائكة، خلَقَهم الله تعالى لطاعته، فهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾(٤)، وهنا ذَكَرَ ركن الإيمان بالملائكة، لكنه ذَكَرَه رحمه الله تعالى غير مرتب، يعني لم يذكره بطريقة ذِكْرِ ما يتعلق بالإيمان بالله عزّ وجلّ ثم ينتقل إلى موضوع الإيمان بالملائكة ثم الرسل، لأنّ مِن شأن هذه الرسائل أنْ تسرد الاعتقاد سردًا، "وجَبَلَهم على طاعته" الرب سبحانه وتعالى جَبَلَ هؤلاء الملائكة عليهم الصّلاة والسّلام على الطاعة المستديمة، فهم يسبحون الليل والنهار لا يفتُرُون، وهم لا يعصون الله تعالى أبدًا عليهم صلاة الله وسلامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ

(١) حلية الأولياء (٦/ ٢٠١).

(٢) آل عمران: ١٣٥.

(٣) الذاريات: ٥٦، ٥٧.

(٤) الأنبياء: ٢٠.

مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1]، أمّا العباد الآخرون مِن الجنّ والإنس فهم فريقان، فريق كفار، وفريق مؤمنون، والمؤمنون لا يمكن أنْ يَعبدوا عبادةَ الملائكة، ويقعُ منهم ما لا يقع مِن الملائكة مِن المعاصي، فلهذا كان مِن صفات الله تعالى العفو والغفران والرحمة والصفح والستر سبحانه وتعالى، لأنّ هؤلاء يذنبون، وفي الحديث «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم؛ ولأتى بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»[2]، أمّا الملائكة فهم دائمو الطاعة، فالمكلفون على أقسام، إمّا أنْ يكونوا مِن المطيعين لله تبارك وتعالى ويقع منهم عصيان، وهم مِن المؤمنين – مِن الجنّ والإنس –، كما قال تعالى عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾[3].

القسم الثاني: أخبثُ الخَلْق – وهم أهل الكفر – ورؤوسهم الشياطين، وهم ضُلَّالُهم وقادتُهم، وعلى رأسهم الطاغوت الأكبر إبليس – نعوذ بالله مِن حالهم ومحالهم –.

القسم الثالث: هم الملائكة عليهم الصلاة والسلام، وهم قد خُلِقوا للعبادة المستديمة، فالملائكة عبادتهم دائمة، والشياطين معاصيهم وشرُّهم دائم، وأهل الإسلام بين هؤلاء وبين هؤلاء، لا هم بأهل الطاعة المستديمة فيَصِلُون إلى درجة الملائكة، ولا هم بأهل المعاصي المستديمة فيَصِلُون إلى درجة الشياطين، وقد عَلِمَ الله تعالى ضعفهم فكان مِن رحمته تبارك وتعالى أنْ فَتَحَ لهم بابَ التوبة وأنْ هيّأ لهم سبحانه وتعالى العفو والصفح والحِلْم عنهم حتّى يُنِيْبُوا إلى ربهم ويعودوا، ثمّ ذَكَرَ بعضَ أعمال الملائكة فقال: "فمنهم" يعني مِن هؤلاء الملائكة "ملائكةُ بقدرته للعرش حاملون" وهم حملة العرش، قد خُلِقوا على هيئة عظيمة لا يحيط بعظمتها إلّا جبّار السموات والارض، وقد وردت أحاديثُ بعظمة الواحد منهم وأنّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة كذا وكذا مِن السنين ممّا لا يحيط به إلّا مَن خَلَقَهم سبحانه وتعالى[4]، "وطائفةٌ منهم حول عرشه يسبحون" هؤلاء حافّون بعرشه كما قال تعالى في ذِكْرِ الملائكة: ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

(٣) الجن: ١١.

(٤) الحديث المشار إليه رواه أبو داود (٤٧٢٧) من حديث جابر رضي الله عنه. الصحيحة (١٥١).

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(١)، "وآخرون بحمده يُقَدِّسُون" وهم دائمو الطاعة في ذِكْرِ لله تعالى مستديم، قال: "واصطفى منهم رسلًا إلى رسله" قال الله عزّ وجلّ: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾(٢)، فالرسالة تشمل الملائكة وتشمل البشر، فمِن الملائكة رسل يرسلهم الله تعالى إلى مَن شاء واصطفاه مِن الإنس بالرسالة، فيأتي جبريل بالرسالة إلى الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام فيبلغونها عن الله، وبعضهم يُدَبِّرُون بِأَمْرِه كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾(٣) تعمل بتدبيره وتحت مشيئته، قال: "ثم خَلَقَ آدم بيده" في هذا أنّ آدم خُلِقَ بعد الملائكة بلا شك، وهذا الدليل عليه مِن القرآن ظاهر، وخَلَقَه بيده، وهذه ممّا تميز به آدم عليه الصّلاة والسّلام، خَلَق الله تعالى جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، فمِمّا تميز به آدم أنْ خلقه الله تعالى بيده، ولذا قال تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(٤)، وأَمَرَ الله الملائكة أنْ يَخِرُّوا لآدم سجدًا على سبيل التكريم قطعًا – وليس على سبيل العبادة! معاذ الله في ذلك – على سبيل التكريم، قال إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾(٥) فإنّ ابليس امتنع – قَبَّحَه اللهُ – مِن السجود لآدم لأنه عَلِمَ أنّ الله أكرم آدم بهذا وأَمَرَ الملائكة أنْ يسجدوا له، "وأسكنه جنته" سبحان الله العلي الأعلى قضى ـ الله أنْ يسكن آدم الجنة، "والله قَبْلَ ذلك للأرض خَلَقَه" يعني قد قَدّرَ الله أنه سيهبط إلى الأرض، "ونهاه سبحانه وتعالى عن شجرة قد نفذ قضاؤه عليه بأكلها" يعني أنّ الله تعالى نهى آدم عن الشجرة – وهو يعلم سبحانه وتعالى – أنه سيأكل مِن هذه الشجرة، "ثم ابتلاه بما نهاه عنه منها، ثمّ سلّط عليه عدوه فأغواه" وهو ابليس "وجَعَلَ أكلَه لها إلى إسكانه إلى الأرض سببًا" فيه تقديم وتأخير، يعني جَعَلَ أكلَه لها سببًا في إسكان آدم الأرض، لأنّ الله تعالى أَمَرَ آدم أنْ يهبط إلى الأرض، وعاش هو وذريتُّه فيها إلى أنْ يأذن الله تبارك وتعالى بانقضاء الدنيا ثم يكون الناس فريق في الجنة وفريق في السعير، قال: "فما وجد إلى تَرْكِ أكلها سبيلًا ولا عنه

(١) الزمر: ٧٥.

(٢) الحج: ٧٥.

(٣) النازعات: ٥.

(٤) ص: ٧٥.

(٥) الإسراء: ٦٢.

لها مذهبًا" لأنّ الله قد قَدّرها، "لكنّ آدم" وهذا هو موضع الشاهد، مع أنّ هذه مقدرة على آدم، وكانت في سابق عِلْمِ الله، وكان آدم لا سبيل له إلّا أنْ يأكل منها قد تاب إلى ربه ممّا وقع منه مِن الأكل، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[١]، وهكذا ذرّيتُه مأمورون إذا وقع منهم ما وقع مِن المخالفة أنْ يفعلوا ما فعل أبيهم وأنْ يقولوا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢] ويعودوا كما عاد أبوهم، قال: "ثم خَلَقَ للجنة مِن ذرّيته أهلًا؛ فهم يعملون بأعمالها" يعني أنّ الله تعالى جَعَلَ الناس فريقين – فريق في الجنة وفريق في السعير –، فأهل الجنة يعملون بعمل أهل الجنة، وهذا كما قدّمنا في الكلام عن القَدَرِ أنّ الجنة لها طريق ولها درب؛ فمَن سلكه فهو بإذن الله وفضله ورحمته يصل إليها بعون الله تعالى، ومِن فضل الله ومنّته أنّ مَن سلك الطريق إلى الجنة وأخلص لله في ذلك؛ فالعموم الأغلب مِن فَضْلِ الله ومنّته أنّ الإنسان يُختم له بخاتمة حسنةٍ، فأمّا مَن يتغير حاله – نسأل الله العافية – وينتقل مِن حالِ أهلِ السعادة إلى أهل الشقاوة؛ فذلك أولًا قضاء قضاه الله، والأمر الآخر هناك أسباب كثيرة تكون مِن العبد، ومِن أعظم ما يجعل العبد ينحرف عن طريق أهل السعادة إلى طريق أهل الشقاوة الأمورُ الخفية التي يعلمها الله بالعباد ولا يعلمها الناس، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ العبد ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يظهر منها»[٣]، أمّا فيما بينه وبين الله فالله يعلم أمورًا خفية قد خفيتْ على الناس، ومِن أعظم ما يضلّل العباد عنْ طريق الجنة داءٌ خطير للغاية وهو التمنّع على النّصوص وعناد النصوص، في أيّ باب مِن الأبواب، في الغيب، في الوِلاية، في الصحابة رضي الله عنهم، في أي باب، احذر أنْ يكون بينك وبين النصّ صدامٌ، وأنْ تضيق ذرعًا بالنص! فإنه إنْ كان الحال كذلك فإنّ القلب فاسد، لأنّ هذه النصوص مِن الله تعالى ومِن رسوله صلى الله عليه وسلم لا يأتيها الباطل مِن بين يديها ولا مِن خلفها، هذا التمنّع على النصوص قد يكون مِن آثاره – نسأل الله العافية – زيغُ القلب، ولهذا أحد الملاحدة المشاهير لا نريد حتى ذكر اسمه – نسأل الله العافية والسلامة – كان درس العلم الشرعي وألّف وصنّف في الكتب ثم إنه ارتدّ –

---

(١) طه: ١٢١، ١٢٢.

(٢) الأعراف: ٢٣.

(٣) صحيح البخاري (٢٨٩٨) بنحوه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

نسأل الله العافية والسلامة – رِدّة الإلحاد التّامة، تحدّث عنه بعض المشايخ ممّن عاصروه قالوا: كنا نلحظ عليه في سِنِيّ الدراسة حين كنّا ندرس أنّ لديه تمنعًا وتعنتًا على النصوص، فهذا الداء الخبيث في القلب كان مِن آثاره – نسأل الله العافية والسلامة – ذاك الانسلاخ الكامل بأنْ ارتد عن الإسلام كلّه فصار ملحدًا لا يقرّ بالله – نسأل الله العافية والسلامة –، فمِثْل هذه الأمور لا تظهر للناس، ومِن أخطر الأمور التي قد تحرف عن الهدى الاغترار بالعمل ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾(١)، يعني يشعر الإنسان بأنه كالمتمنّن على الله بأنه يصلي ويصوم وأنه كافّ عن الربا والفواحش، هذه أمور خطيرة جدًّا على العبد، لأنّ هذه الأمور ما هي إلّا مَحْضُ نعمة مِن نعمة الله عزّ وجلّ عليك، فهي مِن أعظم ما يجعلك تستكين وتذل لله؛ فإذا كانت هي سببًا مِن أسباب تعنّتك ومنّتك على الله تعالى بعملك؛ فهذا مِن فساد القلب بلا شك، فالحاصل أنّ الله تعالى خَلَقَ للجنة مِن ذرّية آدم أهلًا فهم يعملون بأعمالها وبمشيئة الله تعالى يعملون وبقدرته وبإرادته، يسيرون ويمضون على حالهم، "وخَلَقَ مِن ذرّيته للنّار أهلًا" قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(٢) نسأل الله العافية، لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، لهذا قال رحمه الله: "فخَلَقَ لهم أعينًا لا يبصرون بها" لا يستفيدون منها، وإنْ كان عندهم أعين وإنْ كان عندهم آذان وإنْ كان لهم قلوب – لكنْ نسأل الله العافية – قد غلِّفت وضُرِبَ عليها – نسأل الله العافية – الضلال، قال: "فهم بذلك عن الهدى محجوبون، وبأعمال أهل النّار بسابق قدَره يعملون".

قال رحمه الله: وَالْإِيمَان قَول وَعمل مَعَ اعْتِقَاده بالجَنان وقَول بِاللِّسَانِ وَعمل الجوارح والأركان، وهُمَا سِيّان ونظامان وقَرِينان لَا يُفَرَّقُ بَينهمَا، فلَا إِيمَان إِلَّا بِعَمَل، وَلَا عمل إِلَّا بِإِيمَان.

.....

---

(١) الحجرات: ١٧.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

لاحظوا التأكيد عند الإمام المزنيّ وسبق عند الإمام الحُميدي، في التأكيد على أَمْرِ الإيمان، أنّ الإيمان قول وعمل، وهذا قلنا إجمال، ثم فصّل فقال: "اعتقاد بالجنان" وهو القلب، "وقول باللسان" وهو نطق اللسان، "وعمل بالجوارح والأركان"، هذا الإيمان، "وهما سيّان"، وفي نسخة أخرى "وهما شيئان"، "ونظامان وقرينان لا نُفرّق بينهما" يعني لا نفرّق بين الإيمان وبين العمل، فلا إيمان إلّا بعمل ولا عمل إلّا بإيمان، كما أنّ العامل لو عمل – وهو غير مؤمن – لا يستفيد، قال: فالذي قال: إني مؤمن ولا أعمل؛ فلا يستفيد، هذا كله تأكيد على أنّ الإيمان مركب مِن هذه الحقائق الثلاث، قول واعتقاد وعمل، وأنّه لابُدّ مِن العمل كما أنه لابُدّ مِن القول ولابُدّ مِن الاعتقاد.

والمؤمنون فِي الإِيمَان يتفاضلون وبصالح الأَعْمَال هم مُتزايدون، وَلَا يَخرجُون بِالذنُوبِ مِن الإِيمَان، وَلَا يُكَفِّرُون بركوب كَبِيرَة وَلَا عصيان، وَلَا نوجب لمُحْسِنِهم الجِنان، إلّا الذين أوجب لَهُم النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، وَلَا نشْهد على مُسِيْئِهم بالنَّار.

.....

هذا القسم الثاني مِن الإيمان، قلنا: إنّ الإيمان مسائله الكبرى ثلاث، الأولى: حقيقته، والثانية: أنه يزيد وينقص، والثالثة: الاستثناء فيه، قال: "والمؤمنون في الإيمان يتفاضلون" يعني أنّ أهل الإيمان ليسوا بالإيمان على حدّ واحد، فلا يمكن أنْ يكون إيمان آحاد المؤمنين مثل إيمان أبي بكر وعمر – فضلًا عن أنْ يكون مثل إيمان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم –، فالإيمان أهلُه فيه يتفاضلون، يعني في حقيقته "وفي تصديقهم ويقينهم يتفاضلون، وبصالح الأعمال هم متزايدون" يعني أنّ الأعمال ميدان للسباق، فمَن أعانه الله تعالى على الإكثار مِن ذِكْرِه وشُكْرِه ونحو ذلك مِن الأعمال؛ ومِن أعظم ما ينبّه عليه الناس في ما يجذب الحسنات الكثيرة التي لا يحصيها إلّا الله أَمْرُ قراءةِ القرآن، فإنّ القرآن أحرفه كثيرةٌ جدًّا، ذَكَرَ ابنُ كثير أنه تبلغ عند بعض مَن عَدُّوه ثلاثمئة وواحد وعشرين ألف حرف ومئة وثمانين، والنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «مِن قرأ حرفًا مِن كتاب الله؛ فله بكل حرف حسنة، لا أقول: آلم حرف! ولكن ألفٌ حرف ولامٌ حرف وميمٌ

حرف»[1]، فمِن أعظم ما يجلب الحسنات التي لا يحصيها إلّا الله قراءةُ القرآن، لهذا لا ينبغي – ولا نقول على سبيل التّحريم – لكنْ في هذه النّعمة التي نحن فيها وفي رغد العيش الذي نحن فيه وتوفر الإضاءة ليلًا لا ينبغي أنْ تقلّ ختمتُك عن مرةٍ في الشهر، والختمةُ مرة في الشهر الحقيقة أَمْرٌ مقدورٌ عليه وميسور جدًا، فإنْ أعانك الله وختمت أكثر فالنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «لا أقول: آلم حرف! ولكن ألفٌ حرف ولامٌ حرف وميمٌ حرف»[2]، فالعجب مِن الغفلة عن القرآن مع هذه الحسنات المتزايدة الكثيرة منه، ومِن أعظم ما يجلب الحسنات إغاثةُ الملهوف ممّن يكون في حال مِن الكرب – كما هو الحال في هؤلاء اللاجئين، وهؤلاء المكلومون ممّن دُمّرت عليهم بيوتهم وشرّدوا وحصل لهم ما حصل – وهكذا مَن تستطيع أنْ تُغيثه مِن فقير ومسكين سواء بمالك أو بشفاعتك، لأنك إذا تسببت فيه فإنك تُفَرِّجُ عنه كربًا، فيحرص المؤمن أنْ يكون كالغيث، لأنّ هذا هو وضع المؤمن الحقيقيّ، كالغيث حيثما وقع نفع، فيحرص المؤمن على مثل هذه الأمور، ولعل تفريجك كرب أخٍ لك يجعله الله تعالى لك في القيامة لتفريج كَرب مِن كُرب يوم القيامة؛ فتفرح أنك فرجت عن أخيك المؤمن، فالمؤمن أيها الأخوة ينفع، لا يجلس هكذا سنين متطاولة لا ينفع مَن حوله! المؤمن كما قلنا كالغيث، تحاول أنْ تكون نافعًا لَمن حولك مِن قرابتك؛ مِن جيرانك؛ من زملائك؛ مِن أهل الفقر؛ مِن أهل الحاجة؛ هكذا ينبغي للمؤمن، لأنّ هذا مما يجلب له مِن الحسنات الشيء الكثير، ثم قال رحمه الله: "وبصالح الأعمال هم متزايدون" قال: "ولا يَخرَجون بالذنوب مِن الإيمان" ويحتمل "ولا يُخرِجون" أي لا يُخرج أهلُ السُّنَّة مِن الإيمان أحدًا بالذنوب، يعني أنّ الذنب إذا وقع مِن العبد – الذنب الذي هو المعصية – فإنّ مَن وقع فيه لا يَخرج مِن الإيمان، لكنّ الذي يُخرجه مِن الإيمان ويلحقه بالكفار هذا فعل الخوارج، ولهذا قال: "فلا يَكفرون بركوب كبيرة ولا عصيان" لأنّ هذا هو اعتقاد الخوارج، ثم قال: "ولا نُوجب لمُحْسِنِهم" يعني لمحسن المؤمنين "لا نُوجب لمحسنهم الجِنان" مهما كان الرجل في إيمانه وتقواه وزهده وصلاحه وأَمْرِه بالمعروف ونهيه عن المنكر – حتّى لو مات على ذلك – وخُتِمَ له بخاتمة حسنة؛ حتى لو قُتِلَ في سبيل الله؛ حتى لو مات ساجدًا؛ حتى لو مات وهو مُحْرِمٌ؛ لا يجوز أنْ تقول: إنه مِن أهل الجنة! هذا هو

(١) صحيح. الترمذي (٢٩١٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (٣٣٢٧).

(٢) سبق تخريجه.

الصحيح، لأنّ الحكم له بأنه مِن أهل الجنة هذا حُكْمٌ عن الغيب، والله تعالى أعلمُ بعباده، لكن لا شك أنك ترجو، لهذا أهل السُّنَّة يعبرون بأنهم يرجون للمحسن ويخافون على المُسيء – فقط –، أمّا أنْ يجزموا؛ فإنّه لا يُجزم، ولا يقال مثلًا: إنّ أحمد وعمر بن عبد العزيز في الجنة! ما يحل هذا! وإنْ كنّا نرجو لهم الجنّة، ونقول: إنهم مِن أعظم أهل الإسلام في الأمة، لكن أنْ تقول: إنهم مِن أهل الجنة أمر ليس بسهل، وإنْ كان بعض أهل العلم اختار في مِثْلِ مَن عَظُمَ ذِكْرُه وتواردت الألسن على الثناء عليه اختارَ أنه يُجزم له بالجنة، لكنّ الصحيح – إنْ شاء الله تعالى – أنه لا يُجزم لأحد بالجنة إلّا لَمَن قال هنا: "إلّا الذين أوجب لهم النبيُّ صلى الله عليه وسلّم" يعني الذين نصّ لهم النبي صلّى الله عليه وسلّم على أنهم مِن أهل الجنة؛ فهؤلاء قد علِمْنا بحُكْمِ الله عزّ وجلّ ما سيكون في غيب الله بالنّسبة لهم، أمّا بالنسبة لَمَن سواهم فإنّا نرجو لمحسنهم، ولهذا قال: "ولا نشهد على مُسيئهم بالنّار" أيضًا المسيء مهما لقي الله عزّ وجلّ مِن الشرّ والسوء؛ فإنه لا يَشهد عليه بالنار، جاء عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنّ رجلًا انتحر؛ فكأنّ بعض مَن حوله ترددوا في الصلاة عليه؛ فقالوا: إنّ رجلًا منّا انتحر؛ أنصلي عليه؟ فغضب رضي الله عنه وقال: "إلى مَن تكلون جنائزكم؟ إذا ما صلّى أهل الإسلام عليه فمَن يصلي عليه؟؟ لعله اضطجع على فراشه فقال: لا إله إلّا الله؛ فغفر الله له"(١)، ما يدريك حتى لو مات على ما مات عليه، هذا مِن الفروق العظمى بين الخوارج وأهل السُّنَّة، أهل السُّنَّة أرحم الناس بالناس، يقيمون الحدود على الزّناة، ويحتسبون عليهم، ويقدرون عليهم، ويسجنونهم، لكنّهم أرحم النّاس بهم، فإذا ماتوا بادروا وصَلَّوا عليهم، فأمّا الجَزْمُ للمسيء مِن الموحدين – ليس مِن الزنادقة والملاحدة ومَن يظهر إلحادُه وكفرُه! هذا أَمْرٌ آخر – لكن في العصاة من المسلمين، لا تدري، وقد أخبر صلّى الله عليه وسلّم عن بعض العُصاة الذين كانت معاصيهم من الكبائر الشديدة فأخبر صلّى الله عليه وسلّم عن بغيّ – يعني زانية – مِن بني اسرائيل سقتْ كلبًا؛ فغفر الله لها؛ لِمَا قام في قلبها في تلك الحالة مِن الإيمان(٢)،

---

(١) "عن أبي عالية، قال: قلت: يا أبا أمامة؛ الرجل يكون فينا رجل سوء فيشرب الشراب فيموت أنصلي عليه؟ قال: فإلى مَن تكلون جنائزكم؟ وما يدريك لعله استلقى على فراشه فقال: لا إله إلا الله؛ فغفر الله عز وجل له؟ ". شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٦/ ١١٤٨).

(٢) الحديث المشار إليه رواه البخاري (٣٤٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

فلهذا احذر أنْ تَجزم لأحد بالنار، إلّا إذا دلّت عليه النصوص، مهما فعل ومهما عمل، لكنْ نخاف على المسيء، وخوفنا على المسيء ماذا يولد؟ أنْ نسأل الله له المغفرة، ولهذا نبادر إلى الصلاة عليه، وندعو الله له، مع أنه كنا نحن الذين نقبض عليه ونقيم عليه الحد ونمنعه مِن منكره، لكنْ لّما جاء موضعُ ضعفه بادرنا وصلينا عليه وسألنا الله له المغفرة وألححنا على الله عزّ وجلّ أنْ يتوب عليه، ثمّ تبعناه إلى قبره ودفناه، ورفعنا الأيدي لله تعالى بأنْ يغفر له، فهذا هو الوضع السويّ مع المسلمين، فلا يكون عندنا تعنتُ الخوارج ولا عبثُ المرجئة.

وَالقُرآن كلام الله ومِن لَدنه، وليس بمخلوق فَيَبِيْد، وكلماتُ الله وقدرته ونعتُه وَصِفَاتُه كلها كاملاتٌ غيرُ مخلوقاتٍ، دائماتٌ أزليّاتٌ، وَلَيْسَت بمُحْدَثات فَتَبِيْد، وَلَا كَانَ ربنا ناقصًا فيزيد، جَلَّتْ صِفَاته عَن شَبَهِ صِفَات المخلوقين، وَقَصُرَتْ عنه فِطَنُ الواصفين، قريبٌ بالإجابة عِنْد السُّؤَال، بعيدٌ بالتَّعَزُّزِ لَا يُنَال، عَالٍ على عَرْشه، بَائِنٌ عن خَلْقِه، موجود وليس بمعدومٍ وَلَا بمفقود.

.....

تكلمنا عن مسألة القرآن لأنها المسألة التي صارت بها الخصمة الكبرى بين أهل السُّنَّة وبين أعداء الله الجهمية والمعتزلة، وهو رحمه الله قريب عهد مِن هذه المسألة، لأنّا قلنا إنه تلميذ للشافعي، فأدرك المحنة التي امتُحِن بها، وقد امتُحن زميلُه أبو يعقوب البُويطي رحمه الله تعالى، وهو أنبل تلاميذ الشافعي، وهو الذي أوصى الشافعي بالحلْقة مِن بعده، وحُمِّل مِن مصر إلى بغداد، ومات في السجن في بغداد رحمه الله تعالى، وأبى وأصرّ على قول أهل السُّنَّة، وأبى أنْ يُطيع المعتزلة في مقولتهم، فنصّ على هذه المسألة، فقال: "والقرآن كلام الله ومِن لدنْه" مِن عنده سبحانه، وما كان مِن عند الله تعالى فلا يمكن أنْ يكون مخلوقًا، لأنّا نقول: إنّ القرآن صفة مِن صفات الله، وصفات الله لا يمكن أنْ تكون مخلوقة، ولّما كان غير مخلوق فإنه كلام الله لا يَبيد، لأنّ الخَلْق هم الذين يَبيدون قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1] فالله تعالى لا يَبيد ولا تَبيد أسماؤه ولا صفاته تبارك وتعالى، قال: "وكلمات الله وقدرته" سبحانه وتعالى،

---

(١) الرحمن: ٢٦، ٢٧.

القدرة والكلام كل هذه مِن صفات الله "ونعته وصفاته" النعت هي الصفة، كلها كاملاتٌ غير مخلوقاتٍ، كل صفات الله تعالى كاملة، ولمّا ذكر الله تعالى الأسماء بَيَّنَ أنها حُسنى ولم يُبَيِّنْ أنها حَسَنة! فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(١) اسم تفضيل، ولمّا ذَكَرَ سبحانه وتعالى وَصْفَه ذَكَرَه أيضًا باسم التفضيل فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾(٢)، ولم يقل: العالي! فالله له أكمل الأسماء وأعظم الأوصاف سبحانه وتعالى، "كاملات غير مخلوقات" والمخلوق مِن شأنه النّقص والفناء، "دائمات أزليّات وليست بمُحْدَثات" يعني أنّ الله تعالى ما كان مُعَطِّلًا مِن صفات الكمال ثم اتّصف بها! حاشاه تبارك وتعالى، بل هو متصف بصفات الكمال أبدًا سبحانه، "ولا كان ربنا ناقصًا فيزيد، جلّت صفاته عن شَبَه صفات المخلوقين" ليس مثل المخلوقين في صفاته "وقَصُرَتْ عنه فِطَنُ الواصفين" يعني أنّ الواصفين لو أراد أحد أنْ يجعل الفطنة والنباهة سبيلًا لتحديد وصف الله عزّ وجلّ فإنه سيَقْصُر عن ذلك، فالله عزّ وجلّ أصلًا لا يُحاط به علمًا قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾(٣)، ومع ذلك فإننا نقول: الكلامُ – كلام الله عزّ وجلّ – أصله ذاتية، وإذا قلنا صفة ذاتية فمعناه أنّ الله لم يَزَلْ ولا يزال متّصفًا بها، وآحاده – آحاد كلام الله عزّ وجلّ – مُتجددة، فكلّم اللهُ تعالى آدمَ في وقت، وكلّم موسى في وقت، ويُكلم أهل الجنة في وقت – إذا جاءت يوم القيامة – ويتكلم متى شاء سبحانه، يُكلّم ملائكته بما شاء، ويُكلّم مَن شاء مِن خَلْقِه تعالى كما كَلَّم نبيَّه محمدًا صلّى الله عليه وسلّم في المعراج، وفرض عليه الصلاة كفاحًا، يتكلم متى شاء، ومَن يمنع اللهَ عزّ وجلّ مِن الكلام؟؟ كيف شاء، كيفية كلامه إليه سبحانه، فيتكلم كيف شاء متى شاء سبحانه وتعالى، ومع ذلك عزّ اسمُه فهو قريب بالإجابة عند السؤال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(٤)، "بعيد بالتَّعَزُّز لا يُنَال" فعزته سبحانه لا تُرام، فهو عزيز سبحانه وتعالى لا يمكن أنْ يُنال، وهو مع ذلك قريبٌ عند السائلين، "عالٍ على عرشه بائنٌ مِن خَلْقِه" عالٍ على عرشه معناه أنه تعالى قد

(١) الأعراف: ١٨٠.

(٢) النحل: ٦٠.

(٣) طه: ١١٠.

(٤) البقرة: ١٨٦.

استوى على العرش، "بائنٌ مِن خلقه" يعني أنّه فوق جميع خلْقِه، وليس معهم في أرضهم، بل هو فوق جميع الخلق سبحانه وتعالى، "موجود وليس بمعدوم".

والخَلْقُ ميّتون بآجالهم عِنْد نَفاد أرزاقهم وانْقِطَاع آثَارهم.

.....

يقول: الخَلْق هم ميّتون بآجالهم، يعني لا يمكن أنْ يموت أحدٌ – سواء بقتل أو بوفاة على فراش أو بمرض أو بأي لون مِن ألوان مفارقة الحياة – إلّا بأجل عندما يَنْفَدُ رزقُه، ما دام له رِزْق؛ فإنه يبقى له أجلٌ ليأكل رزقه وينتهي أجلُه ورزقُه، والله على كل شيء قدير، وانقطاع آثاره، ولهذا مِن آيات الله سبحانه وتعالى الوفيات، أنْ تجد أنّ الإنسان في بعض الأحيان يأكل جُزءًا مِن طعامه أو يشرب جُزءًا مِن الماء ثمّ يذهب إلى موضعه فيقول: سأعود ثم أكمل أكلي أو شربي، هذا يستحيل أنْ يشربه، لأنه ليس مِن رزقه، ولأنّ أجله سوف يأتيه في خرجته هذه، فأخذ منها ما قُدِّرَ له، والذي لم يُقَدَّر له لا يمكن أن يَناله فيخرج ولا يعود إلّا ميّتًا، وهذه المواضع عِبَرٌ، أنّ الآجال والأرزاق كما أنّ أجلك يَتْبَعك فرِزْقُك لابُدّ أنْ يأتيك، فعند انتهاء الرزق ينتهي الأجلُ، ولا يمكن أنْ تموت حتى تستكمل رزقَك.

ثمَّ هم بعد الضّغطة فِي القُبُور مسئولون، وَبعد البِلَى منشورون، ويوم القيامة إِلَى ربهم مَحْشُورُون، ولدى العرض عليه مُحاسبون بحضرة الموازين ونَشْرِ صُحُف الدَّواوين، أحصاه الله ونسوه، فِي يوم كان مقداره خمسين ألف سَنَة لو كان غيرُ الله عزّ وجلّ الحاكمَ بيْن خَلْقِه؛ لكنه الله يَلِي الحُكْمَ بينهم بعَدْلِه بمقدار القائلة فِي الدنيا وهو أسْرعُ الحاسبين، كما بدأه لهم مِن شقاوة وسعادة يومئذٍ يعودون، فريقٌ فِي الجنَّة وفريقٌ فِي السَّعِير، وَأهل الجنَّة يومئذٍ فِي الجنَّة يتنعمون، وبصُنُوف اللَّذَّات يتلذذون، وبأفضل الكرامة يُحْبَرُون، فهم حينَئذٍ إلى ربهم ينظرون، لا يُمارُون فِي النّظر إليه بذاته، ولا يَشكُّونَ، فوجوههم إليه بكرامته ناضرة، وأعينهم بفضله إليه ناظرة، فِي نعيم دائم مُقيم ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾(١)، ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا

---

(١) الحجر: ٤٨.

تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[1]، وَأهل الجَحْد عن ربهم يومئذ مَحْجُوبون وفي النَّار يُسْجَرُون ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[2] ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾[3] خلا مَن شاء الله مِن المُوَحِّدين إخراجَهم منها.

....

تكلم بعد ذلك عمّا يتعلق بالقيامة، فبعد أنْ ذَكَرَ أنّ الخَلْق ميّتون بيّن أنهم في قبورهم مسئولون، ويُسأل العبدُ في قبره عن مسائل ثلاث، عن ربه وعن دينه وعن نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، وهذه الأسئلة الثلاثة هي المرادة بفتنة القبر، ففتنة القبر يُسأل عنها كلُّ أحد - إلّا مَن اسْتُثْني كمَن مات مُرَابطًا ونحوه؛ فإنه يُوقى الفتّان -، لكن السؤال يُسأل الناس عن هذه المسائل، فالمؤمن يُثَبَّتُ – نسأل الله الكريم أنْ نجيب الجواب الصحيح - وأمّا المرتاب والمنافق فإنه حتى لو كان في الدنيا يقول ربي الله ونبيّ محمد وديني الإسلام بسهولة؛ فإنه لا يستطيع أنْ يقول ذلك في قبره لأنه لا يقولها إلّا مَن ثَبَّتَه الله، لكن يقول: "هم بعد الضغطة في القبور مسئولون" يعني يُسألون بعد الضغطة، جاء في الأحاديث أنّ العبد يَضُمُّه القبرُ إذا هو دخل في القبر؛ فإنّ القبرَ يَضُمّه بأَمْرِ الله عزّ وجلّ[4]، ومِن أهل العلم مَن يقول: إنّ هذه الضغطة لا ينجو منها أحد، وبعض أهل العلم يقول: إنّ الضغطة هذه تكون شاقّة على أهل المعاصي وغيرهم؛ ولا تكون شاقّة على مَن سواهم، وظاهر صنيع الراوي يدلّ على العموم، لأنه يَظهر أنّ ثمّة ضغطةً لابُدّ أنْ يَنالها كلُّ أحدٍ أيّاً كان إذا هو ورد إلى قبره، والله عزّ وجلّ إليه الأمر مِن قَبْلُ ومِن بعد، "بعد هذه الضّغطة يُسألون، وبعد البِلى" لا شك أنّها تَبلى الأجساد، في فترة القبور يسألون، ثم بعد ذلك إذا انتهى أَمْرُ بقاء الناس في قبورهم يُنشرون

---

(١) الرعد: ٣٥.

(٢) المائدة: ٨٠.

(٣) فاطر: ٣٦.

(٤) الحديث المشار إليه رواه ابن حبّان في صحيحه (٣١١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٦٩٥).

ويُبعثون إلى ربهم تبارك وتعالى، "ويوم القيامة إلى ربهم محشورون" ذَكَرَ أنّ العباد بعد ذلك يُحشرون إلى ربهم تعالى كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «يا أيّها الناس إنكم محشورون إلى ربكم حفاةً عراةً غُـرْلًا»(١)، وقال عزّ وجلّ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٢)، يُحشرون إلى ربهم ليحاسبهم، ولهذا قال: "ولدى العرض عليه محاسبون" فيحاسب اللهُ سبحانه وتعالى الناسَ، والناس على أحوال، منهم مَن لا حساب عليه ولا عذاب – نسأل الله الكريم مِن فضله –، فهؤلاء يدخلون الجنة مباشرة، ومنهم مَن يحاسب حسابًا يسيرًا فتُعرضُ عليه أعمالُه ولا يُأْخَذُ بها، ومنهم مَن يُشدِّد عليه الحساب – نسأل الله العافية – فَيُأْخَذُ بسيئاته، قال: "بحضرة الموازين" كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾(٣)، يوضع ميزان له كفتان، يوضع في إحدى الكفتين الحسنات وفي الثانية السيئات؛ فإنْ رجحت كفةُ الحسنات نجا، وإنْ رجحت كفةُ السيئات هلك – إلّا أنْ يعفو الله عنه –، "ونَشْرُ صحف الدواوين" الملائكة عليهم الصّلاة والسّلام يكتبون ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٤)، يُلقى للعبد صحيفتُه يوم القيامة ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٥)، فيجد ما قدّم وما قال في كتاب لا يمكن أنْ يَعزُب عن ربّ العالمين عزّ وجلّ شيء؛ فيقرأ كتابه ويرى ما فيه مِن حَسَنٍ وما فيه مِن شَرٍّ ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾(٦) يعني أنّ الله تعالى أحصى أشياء والناس قد نسوها، فقد يذنب الإنسان ذنبًا ويمضي عليه سنون فنسيه، فالله عزّ وجلّ أحصاه، فمِن الأمور المهمة أنْ يسأل العبدُ ربَّه ألّا يُشدد عليه الحساب، لأنّ هذه الآية ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ لها شأنها، يحصي الله عزّ وجلّ للعباد أمورًا مِن غفلة العباد ينسونها ثم يُفْجَؤون بها – نسأل الله العافية والسلامة – فرب العالمين يحصي عليهم ولا يعزب عنه شيء، "في يوم مقداره خمسين ألف سَنَة لو كان غيرُ الله الحاكمَ بين خلقه" هذا أحد الأقوال في الآية في

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) التغابن: ٧.

(٣) الأنبياء: ٤٧.

(٤) ق: ١٨.

(٥) الإسراء: ١٤.

(٦) المجادلة: ٦.

قوله ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ الفَ سَنَةٍ﴾(١) يعني أنّ مقدار الأمر في الحساب هذا لو تَولّاه غيرُ الله تعالى فإنه يكون بمقدار خمسين ألف سَنَة، أمّا هو عزّ وجلّ فإنه يَفْرُغُ منهم مباشرة، مِن عظيم صفات الله التي تدلّ على أنّ الله تعالى لا يمكن أنْ تُقاس صفاتُه أنّه يحاسب الخلائق جميعًا وأنه لا يُشغله أحدٌ عن أحد، كما أنه سبحانه وتعالى ترتفع له الدعوات مِن الملايين في وقت واحد ولهم ألسِنَةٌ متعددة؛ هذا بلغة وهذا بلغة؛ وهذا له حاجة وهذا له حاجة؛ ومع ذلك يُحيط سبحانه وتعالى بطلبات السائلين كلهم وهم يدعون في وقت واحد! ولا يشغله – عزّ اسمه – هذا وطلبه عن هذا، فكذلك عند الحساب، يحاسبهم عزّ وجلّ دفعة واحدة، ولا يُشغله حساب هذا عن هذا، فالله عزّ وجلّ صفاتُه لا تقاس، ولا يُقال كيف يحاسِب هذا ولا يُشغله هذا الحساب عن حساب غيره؟ قال: "لأنّ الله تعالى لا تقاس صفاته بصفات المخلوقين" فهذا أحد الأقوال – وكأنه مال إليه رحمه الله تعالى – في الآية ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألفَ سَنَةٍ﴾(٢)، قال: "وهو أسرع الحاسبين كما بدأه لهم مِن شقاوة وسعادة يومئذ يعودون" يعني ما قُدِّرَ للشقي مِن شقاوة يلقاه، وما قُدِّرَ للسعيد مِن سعادة يلقاه في ذلك اليوم، فريق في الجنة وفريق في السعير، "وأهل الجنة يومئذ في الجنة يتنعمون، وبصنوف اللذات يتلذذون، وبأفضل الكرامة يُحبرون" وأفضل وأعظم نعيم أهل الجنة – كما قلنا – هو النظر إلى وجه الله عزّ وجلّ، لهذا قال: "فهم حينئذٍ إلى ربهم ينظرون" يعني بأعينهم "ولا يُمارون في النظر إليه، ولا يَشُكُّون" لا يَشُكُّون بأنهم ينظرون إليه عزّ وجلّ، "فوجوههم إليه بكرامته ناضرة" يعني مِن النُّضرة والبهاء "وأعينهم بفضله إليه ناظرة" أي أنّ النظر حقيقي ويقع بالأعين، ولهذا تنضر الوجوه مِن النضارة والبهاء والحُسْن بنظرها إلى رب العالمين، "في نعيم دائم مقيم، لا يمسُّهم فيها نصب وما هم منها بمُخرَجين" وهذا مِن أدلة دوام الجنة وأنها لا تفنى، ولهذا أعقبها بالآية الأخرى ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾(٣) – نسأل الله الكريم مِن فضله – قُرّة عين لا تنقطع مستديمة، حتى قال بعض السلف: لولا أنّ أهل الجنة لا يموتون لماتوا فرحًا مِن النعيم الذي هم به، لكن لأنهم لا يموتون؛ لأنّ الفرحة والبهجة في الجنة لا يمكن أنْ

(١) المعارج: ٤.

(٢) المعارج: ٤.

(٣) الرعد: ٣٥.

يتحملها إلّا مَن لا يموت – وهم أهل الجنة – وإلّا مِن شدة الفرح بما يراه الإنسان مِن كرامة الله عزّ وجلّ؛ فإنه لولا أنه ممن قُضي أنه لا يموت لمات – لا خوفًا ولا فزعًا – ولكن مِن شدة الفرح – نسأل الله الكريم مِن فضله –، قال: "وأهل الجاحد" وهم الكفار "عن ربهم يومئذٍ محجوبون" لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾(١)، فهم لا يرون الله تبارك وتعالى ولا يتنعمون بالنظر إليه، "وفي النار يُسجرون" نسأل الله العافية والسلامة، ثم قال رحمه الله تعالى: "خلا مَن شاء الله مِن الموحدين إخراجَهم منها" يعني أنّ الاستمرار في النّار والدّوام فيها هذا لا يكون إلّا للكافر، وكما أنّ أهل الجنة يخلدون في الجنة ولا يُخرجون منها أبد الآباد – التي لا تنقطع ولا تنقضي – فالكفار مِن أهل النار مقيمون فيها أبد الآباد ولا تفنى نهائيًّا – نسأل الله العافية والسلامة – فهم فيها مستديمون إلّا عُصاة الموحدين الذين قضى الله تعالى أنْ يدخلوها ممن ارتكبوا كبائر فلم يشأ الله تعالى أنْ يعفو عنهم، لأنّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(٢)، فدلّ على أنّ مَن يقعون في الكبائر على قسمين، منهم مَن يغفر الله تعالى له ذنبه فيتلقاه برحمته، ومنهم مَن شاء الله أنْ لا يغفر له، لأنّ قوله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ دلّ على أنّ هناك أناسًا قد شاء الله ألّا يغفر لهم، وهذا دلتْ عليه أحاديثُ كثيرة جدًا وردتْ في أناس يدخلون النار – نسأل الله العافية والسلامة – هم مِن الموحدين، وهم أصناف وقعوا في أمور مِن الكبائر، دلّ النص على عذاب – نسأل الله العافية والسلامة – الزُّناة وعلى عذاب أهل الرّبا وعلى عذاب رجل «عَلَّمَه اللهُ القرآن؛ فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار» كما في حديث سمرة في البخاري(٣)، يعني أنه رجل ممن تعلّم العلم – نعوذ بالله – لكن ما نفعه علمُه لا في ليله ولا في نهاره؛ فنام عن الصلاة المكتوبة كما في اللفظ الآخر(٤)؛ ولم يعمل بما تَعَلَّمَه، إلى غير ذلك مِن أصناف، وممن يُعَذَّبُ في قبره أيضًا الكذاب، يأتي بالكذبة فتبلغ الآفاق، يعني أنه يقول الكذبة فتنتشر – نسأل الله العافية – فتنتشر انتشارًا شديدًا في الأرض فيكون مِن آثار ذلك أنْ يُعذّب

(١) المطففين: ١٥.

(٢) النساء: ٤٨.

(٣) صحيح البخاري (١٣٨٦)من حديث سمرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) صحيح البخاري (١١٤٣).

على ما نشر مِن الكذب الشديد، فهؤلاء يأذن الله تعالى بالشفاعة، فتشفع الملائكة ويشفع الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم ويشفع الصالحون ويشفع الأفراط – وهم الذين ماتوا قبل البلوغ – يشفعون في والديهم، ثم إذا انتهت الشفاعة قال عزّ وجلّ: شفعتِ الملائكةُ؛ وشفعتِ الأنبياءُ؛ وشفع الصالحون؛ ولم يبق إلّا رحمة أرحم الراحمين؛ فيُخرج الله عزّ وجلّ الموحدين من النّار ويبقى – نسأل الله العافية والسلامة – مَن حبسهم القرآنُ، وهم أهل الكفر الأصليّون، ومعنى الكافر الأصلي: هو الذي له دين غير الإسلام كاليهود والنصارى ممن أدركوا نبيّنا محمدًا صلّى الله عليه وسلّم ولم يتبعوه، فهؤلاء كفار أصليون، أو مَن ارتدوا – والعياذ بالله – وهم مَن كانوا على الإسلام فخرجوا عنه إلى غيره وصاروا به كفارًا فإنّ هؤلاء يخلدون في النار أبد الآباد.

والطَّاعة لأولي الأمر فيما كان عند الله عزّ وجلّ مَرضيًا، واجْتنَاب ما كان عند الله مُسْخِطًا، وترك الخروج عند تعديهم وجَوْرِهم، والتوبة إلى الله عزّ وجلّ كَيْمَا يعْطف بهم على رعيّتهم.

.....

ذَكَرَ رحمه الله تعالى ما يتعلق بولاة الأمور، واعلم أنّ كلمة "وليّ الأمر" لفظة شرعية لا يجوز السخرية بها ولا الاستهزاء بها لأنها نصُّ القرآن، قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[1]، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله يرضى لكم ثلاثًا؛ أنْ تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تُناصحوا مَن ولّاهم الله أمرَكم»[2]، الملك لله عزّ وجلّ كما قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]، ولا والله لا يمكن أنْ يملك بَشَرٌ حتى يُملّكه ربُّ العالمين، ولا يمكن أنْ يبقى له ملكُه ويستديم إلّا إذا ثبّته الله عزّ وجلّ وإلّا فالأمر كما قال سبحانه: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾، فهذه اللفظة لفظة

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) صحيح الأدب المفرد (٣٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) آل عمران: ٢٦.

شرعية لا يجوز السُّخرية بها، والسخرية بها تُذَكِّر بقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "وأخو الجهالة في خفارة جهله ... والجهل قد ينجي من الكفران"(١)، الجهل في بعض الأحيان يحمل الجاهل إلى أنْ يتكلم بكلام لولا جهله لكُفِّرَ به، لأنّها لفظة في القرآن، فالسخرية مِن نفس اللفظة لا شك أنها سخرية مِن لفظة شرعية، والواجب أنه يجب أن يُتاب عن مثل هذا، فسَمّاهم الله تعالى بأولي الأمر، أولوا: أي أصحاب، الأمر: أيُّ أَمْرٍ؟ أَمْرُ الحُكْمِ وتصريف أمور الرعية، والواجب عليهم أنْ يُصرّفوا أمور الرعية كما أمرهم الله فإنهم عبيد مِن عبيد الله، ليس لهم أنْ يتجاوزوا ما حَدّه الله عزّ وجلّ لهم، فإنْ هم فعلوا فإنّ لهم وعيدًا شديدًا جدًّا حتى قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنكم ستحرِصون على الإمارة، وإنها ستكون يوم القيامة خزيٌ وندامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة»(٢)، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «ما مِن أمير عشرة إلّا ويؤتى به يوم القيامة مغلولًا؛ فَكَّه عَدْلُه أو أَوْبَقَه جَوْرُه»(٣)، فالوِلاية أمرها شديد، وخطبها عظيم، والمتعلق بذِمّة ولاة الأمور مِن أحوال الناس ومَرضاهم وضعفائهم وأيتامهم وأراملهم وفقرائهم ومحتاجيهم شيء عظيم للغاية، ولهذا نصّ أهل العلم في كتب العقيدة نصًّا على وجوب سؤال الله تعالى أنْ يُوَفِّقَهم وأنْ يُعينهم على ما حُمِّلوا؛ لأنهم إنْ لم يُوفِّقهم ويُعينهم فإنهم لن يقوموا بهذه المهمّة العظيمة الجسيمة، ولا شك أنّها مهمة عظيمة، وهي موحشة ومخيفة، ولا يُشك في شدة خَطْبِها في القيامة وعِظَم مسؤوليتها في الدنيا، فمِن هنا أَمَرَ الله بطاعتهم، لأنّ مَن ولّاهم الله عزّ وجلّ الأمرَ لا يمكن أنْ يشتغلوا للرّعية إذا أشغلتهم الرعية بالتشغيب، فإنّ الواجب عليهم أنْ يقوموا بإيفاء الناس حقوقَهم؛ وأنْ ينظروا في أمر ضعفتهم ومساكينهم، فهم لا يستطيعون أنْ يفعلوا هذا حتى تهدأ الأمور وتصلح الأحوال؛ وأنْ يطاعوا، فإذا شَغَّبَتِ الرعيةُ لم يتمكن ولاة الأمر – حتى ولو عادلين – لم يتمكنوا مِن إقامة حدود الله، لأنهم بدلَ من أنْ يشتغلوا للرعية اشتغلوا بالرعية، فمِن هنا نصَّ أهل العلم – وفي كتب الاعتقاد عمومًا – على وجوب طاعتهم "فيما كان عند الله مَرضيًا" يعني أنّ طاعتهم ليست مطلقة، وإنما طاعتهم في نوعين مِن الأوامر؛ اضبطهما:

---

(١) الكافية الشافية لابن القيم (ص: ٦٨).

(٢) صحيح مسلم (١٨٢٥)، ومسند أحمد (٩٧٩١) – واللفظ له – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) ضعيف جدًا. رواه الطبراني في الأوسط (٦٥٩) بلفظ «ما مِن والي ثلاثة». ضعيف الترغيب والترهيب (١٣٣٢).

النوع الأول: ما أوجبه الله، فإذا أمروا بما أوجبه الله؛ فإنهم يُطاعون، لكنّ أصلَ الطاعة ليست لهم، بل الطاعة لله، فإذا أمروا مثلًا – كما هنا – بإيقاف العمل في الصلاة؛ فلا شك أنّ هذا حقّ، وليس لأحد أنْ يبيع ويشتري في الصلاة، فيُطاعون ويُثنى عليهم فعلُه، لكنّ أصلَ الطاعة لله عزّ وجلّ، فإذا أمروا بما فيه طاعة الله وَجَبَ أنْ يُعانوا، وهكذا مَنْعُهم شُرْبَ الخمور، ومنعهم إظهار الزنى، ومنعهم – ولله الحمد؛ نسأل الله أنْ يُثبتهم على ذلك رُغم الضغوط الشديدة منذ سنين طويلة – منعهم مِن إقامة أيّ كنيسة علنيّة في جزيرة العرب، وإقامتهم للحدود، وأمور كثيرة، هي مِن أَمْرِ عزّ وجلّ، فالواجب أنْ يُعانوا عليها، وأنْ يُدعى لهم بالتوفيق وصلاح البطانة.

النوع الثاني مِن الأوامر التي يُطاعون عليها – اضبطه – وهو ما ليس فيه معصية: إذا أمروا بأمر ليس فيه معصية؛ دخل في هذا تنظيمات كثيرة جدًّا للناس، في وزاراتهم وفي مدارسهم وفي أمورهم، هذه الأمور التي يأمر بها ولاةُ الأمور ليست منصوصة في القرآن ولا في السُّنَّة، هل يجب طاعتهم فيها؟ لو لم تقل: نعم؛ لكان معنى ذلك أنّ ولاة الأمور لا يطاعون! لأنّ القسم الأول الذي يُطاعون فيه؛ يطاعون فيه طاعة لله، فإذا قلتَ يطاعون فيما نصّ القرآن والسُّنَّة على الطاعة فيه، النوع الثاني هذا تقول إنْ وُجد في القرآن والسُّنَّة أطعناهم وإلّا لم نُطعهم – وإنْ لم يكن معصية –؛ معنى ذلك أنك لا تطيعهم إلّا فيما أوجب الله مِن أوامر، وبالتالي لا طاعة لهم! فهم يطاعون في نوعين، النوع الأول: ما ذكرناه فيما أَمَرَ الله به وأَمَرَ به رسوله صلّى الله عليه وسلّم، النوع الثاني: ما لا معصية فيه، الشيء الذي يأمرون به إذا أمروا به وهو لا معصية فيه؛ وجبتْ طاعتُهم، لأنّ الله تعالى أَمَرَ بطاعتهم، وإنما القسم الثالث الذي يُعصون فيه – ويأتي الكلام عليه في كلامه رحمه الله – وهو إذا أمروا في معصية الله فلا سَمْعَ لهم ولا طاعة، كما أنّ أباك الذي أُمرتَ بِبِرّه لا يحلّ أنْ تُطيعه في المعصية، فالوالي إذا أَمَرَ بمعصية فإنه لا يطاع في المعصية؛ لكن كما نَبَّه شيخنا الشيخ ابن باز – وهذه مسالة مهمة جدًا – إذا امتنعنا مِن طاعتهم في المعصية فأصل طاعتهم باقي، يعني إذا أمروا بمعصية امتنعنا؛ بل قلنا: لا سَمْعَ، ما نسمع أصلًا، لا نسمع ولا نطيع أصلًا، لكن انتبه؛ الأوامر الأخرى لا تنتقض! فيُعصون فيما فيه معصية، أمّا هم إذا أمروا بمعصية فلا يُقال: انتقضت طاعتُهم! وإنّما يُعصون فيما فيه معصية الله، ولهذا لمّا قال رجل لابن عمرو – عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما – هذا ابن عمك يأمرنا أنْ

نسفك دماءَنا ونأخذَ أموالنا – ويعني معاوية رضي الله عنه – وكذب والله على معاوية، ما أمرهم بسفك دمائهم ولا بأخذ أموالهم! لكن هذا مِن التزيد عليه رضي الله عنه، فسكت ابن عمرو ساعة – ولعله كان يفكر – هذا الأحمق كيف أجيب عليه؟ أقول: إنه يكذب على معاوية؟ أقول: ابن عمي؟ فأراد أنْ ينهي النقاش، فقال: أَطِعْهُ في طاعة الله واعْصِهِ في معصية الله، بدلًا مِن أنْ يدخل معه؛ كأنْ يقول: أنت تتزيد على معاوية! ويقول: لأنكم مِن قريش! ولأنه ابن عمك! بدلًا مِن هذا الشطط والكلام الطويل قال: أنت الآن تدعي هذه الدعوى وأنت كاذب فيها – هذا تقدير كلام ابن عمرو – لكنْ أنا أقول لك بدلًا مِن النقاش معك؛ أقول: أَطِعْه في طاعة الله واعْصِه في معصيته، هذا هو الشاهد؛ أنهم إذا أمروا بمعصية فكما قال: "واجتناب ما كان عند الله مُسْخِطًا" الشيء الذي يسخط الله عزّ وجلّ وفيه معصية لله؛ فإنهم لا يطاعون فيه لا هم ولا غيرهم، لا يُطاعُ الولاةُ، ولا يطيعُ الأولادُ آباءهم وأمهاتهم، ولا تطيعُ الزوجةُ زوجها، ولا العبدُ سيدَه، المخلوقون لا يطاعون في معصية الله البتّة، فمِن هنا صار عند أهل العلم وأهل السُّنَّة توسط؛ فلا هم على طريقة أهل الجاهلية – الذين لا طاعة لهم لولاتهم –! ولا هم على طريقة مَن يطيعون في المعصية كالنواصب زمن بني أمية مِن الغلاة الذين غَلَوا في طاعة حكامهم، فالأمر على هذا الحدّ، ثم قال: "وتَرْكُ الخروج عند تَعدّيهم" قطعًا، ما هناك أحد يخرج على الولاة يقول: لأنهم عدول! معلوم أنّ الولاة العدول ما في أحد يقول: هلموا نخرج عليهم! إنما يُدعى إلى الخروج على الولاة إذا وقع منهم ظلم، والظلم نوعان منهم: ظُلْم في خاصة أنفسهم – كأن يتلبّسوا بفسق ومعصية –، وظُلْم مُتَعَدّ على غيرهم – كأنْ يتعدوا على الناس في أموالهم ودمائهم –، يقول رحمه الله: "وتَرْكُ الخروج عند تعديهم" يعني أنهم إذا تَعَدّوا حدودَ الله عزّ وجلّ؛ فإنه لا يحلّ الخروج عليهم وإنْ تَعدّوا "وجورهم" يعني وعند ظلمهم، ثم قال كلمة – ويا لها مِن كلمة –: "والتوبة إلى الله كيما يعطف بهم على رعيّته)، يقول: إنّ مِن أسباب تسليط الحكام على الرّعية أنّ الله عزّ وجلّ إذا رأى الرّعية تعصيه؛ فإنّ الله تعالى يسلط عليهم أنواعًا مِن البلاء ومِن ضمنها أنْ يسلط عليهم حكامَهم، ولهذا روى ابنُ سعد أثرًا في غاية الحُسن عن الحسن البصري لمّا تكلّم أهل العراق في الحجاج قال: "والله ما سلّط الله عليكم الحَجّاج إلّا عقوبة"[1]، يعني لا تتصوروا أنّ الحَجّاج أتى إلى قوم مِن أصلح

(١) الطبقات الكبرى (٧/ ١٢١).

الناس! يقول: الحَجَّاج مِن جنسكم، عصيتم الله تعالى فسلّطه عليكم، ولهذا كان مما يقوله شيخ الإسلام وغير واحد مِن أهل العلم: "كما تكونوا يُولّى عليكم"(١)، وهو وإنْ لم يثبت مرفوعًا لكن معناه صحيح، ولأجل ذلك لمّا قال رجل لعليّ رضي الله عنه: كان الناس في عهد أبي بكر وعمر على حال أحسن مِن الحال الذي في زمنك وفي زمن عثمان! أجابه بهذا الجواب الحكيم قال: " كانت الرعية في زمن أبي بكر وعمر أنا وعثمان؛ والرعية في زمني وفي زمن عثمان أنت وأمثالك"، مراده – مع الفَرْق العظيم – مراده أنه ثمّة صلة بين الراعي والرعية، فلا يُتصورُ أنّ الرعية حينما تأتيهم رُعاة يتسلطون عليهم أنّ هؤلاء الرعية لم يكن لهم شيء مِن التّسبب في تَسَلُّطِ الرُّعاة(٢)! بل الأمر كما قال شيخ الإسلام وقال غيره مِن أهل العلم: " كما تكونوا يولّى عليكم"، فمِن هنا قال هذه الكلمة: "والتوبة إلى الله كيما يعطف بهم على رعيته" يعني أنّ الله تعالى إذا تابتِ الرعية كان مِن آثار توبتهم أنْ يُسَهّل لهم أمورًا منها صلاحُ الرعاة والحكام، وفي الوقت نفسه مِن عقوبة الله للرعية – إذا عصتْ ربَّ العالمين – أنْ يُسلّط عليهم حكامَهم، وبذلك يُعرف التوازن؛ وأنّ الأمر في الأخطاء هذه ليس مصدره الحكام وحدهم! بل الأخطاء هذه صادرة مِن الحكام ومن الرعية معًا، هكذا النَّصَف وهكذا العدل، أنْ يُعْلَم أنّ هذه المعاصي منها معاصٍ مِن الحكام ومنها معاصٍ مِن الرعية، مثال يسير: مَن الذي مَنَعَ الناسَ مِن صلاة الفجر؛ حتى قَلَّ مَن يصلي الفجر؟ مَن الذي أخرج النساء بالعُصِيّ- متبرجات؟ مَن؟ لا أحد أخرجهم، هذا التبرج مِن أعظم ما يسخطه الله، عدم الخروج عن صلاة الفجر مِن أعظم الأمور عند الله – عن عموم الصلوات –، هل الحكام تسلطوا حتى منعوا أحدًا؟ قطعًا لا، العاقبة أنّ الله تعالى قد يُسلط الرُّعَاة(٣) كما أنه قد يُسلط الغلاء وقد يُسلط الوباء وقد يُسلط الأعداء سبحانه وتعالى؛ فينالوا مِن الأمة، هكذا يكون النَّصَف، وهو الذي أشار إليه رحمه الله تعالى وهو أنه يترك الخروج عند تعديهم وعند ظلمهم؛ ويتاب إلى الله كيما يعطف بهم على رعيتهم، لأنّ في رعيتهم تسببًا في تسليط الحكام عليهم.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٤٦).

(٢) هنا قال الشيخ حفظه الله: " تسلّيط الرعية" ولعلّه سبْقُ لسان؛ وأنّ الصواب ما أثبتناه. والله أعلم.

(٣) هنا قال الشيخ حفظه الله: "الرعية" ولعلّه سبْقُ لسان؛ وأنّ الصواب ما أثبتناه. والله أعلم.

المجلس الثالث

والإمساكُ عَن تَكْفِير أهل القِبْلَة، والبراءةُ مِنْهُم فِيمَا أَحْدَثُوا؛ مَا لم يبتدعوا ضلالة، فَمَن ابتدع مِنْهُم ضلالةً كَانَ على أهل الْقبْلَة خَارِجًا؛ ومِن الدين مارقًا، ويُتقرب إِلَى الله عزّ وجلّ ببغضه والبَرَاءَةِ منه، ويُهجر ويُحتقر وتُجتنب عُرَّتُه فَهِيَ أعدى من غُرَّة الجرب.

.....

ذَكَرَ رحمه الله تعلى وجوبَ الكَفّ عن تكفير أهل القبلة – يعني بالذنوب كما تقدم –، لأنّ كلامه فيما يتعلق بالحكام، والحكام يقع منهم المظالم وهذه المظالم ذنوب، ومع ذلك فإنه لا يُخرج عليهم، فامتدادًا لهذا الأمر تكلم عن الذنوب الواقعة مِن غير الحكام، فقال: "والإمساك" الكف "عن تكفير أهل القبلة" وهم المسلمون، لأنّ الذي يتوجه إلى القبلة هو المسلم، يتوجه إليها عند الصلاة، فيُكَفُّ عن تكفيرهم، ولكن يُبرأ منهم فيما أحدثوا، فجَمَع بين تَرْكِ تكفيرهم والبراءة مِن باطلهم، ما يكونون عليه مِن إحداث الباطل لا يُقرّون عليه ويُبرأ إلى الله عزّ وجلّ مِن هذا الباطل ومما فعلوه، لكن لَمّا تكلم عن البدع قال إنّ وضع البدعة أشد مِن وضع المعصية، كلام متقدم في العصاة، قال: "ما لم يبتدعوا ضلالة" أي أنّ البدعة أسوأ مِن المعصية لِمَا فيها مِن الخروج عن السُّنَّة، صاحب المعصية إذا أنت سَبَرْتَ أمْرَه فإنك تجده يُخطّأ نفسَه فيقول: فعلي غلط؛ ومَن لم يفعل فعلي فهو المصيب؛ وعسى الله أنْ يَمُنّ عليّ بالهدى؛ وما أنا فيه ذنبٌ مِن الذنوب أخشى مِن شره في الدنيا وفي الآخرة، فهو مُستكين ذليل لله عزّ وجلّ في العموم الأغلب، صاحب البدعة لِمَ هو أسوأ؟ كما قال سفيان رحمه الله تعالى: "البدعة أحبُّ إلى إبليس مِن المعصية؛ لأنّ البدعة لا يُتاب منها والمعصية يُتاب منها"[1]، يعني الزاني حين يزني يعلمُ أنه مخطئ فيتوب، لكن المبتدع الذي يرى أنّ ما أحدثه هو الحق! يقول: تريدني أنْ أتوب عمّا أتقرب إلى الله به؟؟ مثاله: الرافضيّ فالذي يسبّ الصحابة رضي الله عنهم إذا قيل له تُبْ قال: هذا دين! فهو – قبحه الله – يتقرب إلى الله بسَبّ الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا لا يتوبون إلّا إنْ تركوا أصل بدعتهم وانتقلوا للسُّنَّة، فالبدعة مِن هذه الجهة أسوأ، لهذا قال: "فمَنِ ابتدع ضلالة كان على أهل القبلة خارجًا" يعني خرج على أهل القبلة ببدعته وضلالته هذه، "ومِن الدين مارقًا"

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للالكائي (١/ ١٤٩) عن سفيان الثوري.

المروق مِن الدين في النصوص وفي مثل هذه العبارات على نوعين – مثل الكفر –، على نوعين، تارةً يكون مروقًا يَخرج به المارقُ مِن الملة، وتارةً يكون مروقًا دون الخروج مِن الملة، واعلم أنّ هذه الألفاظ – الكفر والشرك والفسق والظلم والمعصية والنفاق – كلها على نوعين، منها ما هو أكبر مُخرج مِن الملة؛ ومنها ما هو أصغر دون الإخراج مِن الملة، فَمِن أعظم الخطر على الإنسان أنْ يتعامل مع نصٍّ مِن هذه النصوص الشرعية يتحدث عن ما هو أصغر مِن هذه الأسماء؛ فيحمله على الأكبر! هنا يكون تكفير الذي لا يستحق أنّ يُكَفَّر، وأعطيك مثالًا ذكره الماوردي – وهو عجيب جدًا – ذكره الماوردي في الحاوي الكبير، الشافعي رحمه الله تعالى يختار للإمام ألّا ينتظر الداخل إذا كان الإمام راكعًا، يقول: "إذا سمعتَ صوتَ مَن هو داخل إلى المسجد؛ فلا تنتظره" يقول الشافعي: "وانتظار الإمام شركٌ"، فَهِمَ بعض الشافعية أنّ مراد الشافعي رحمه الله بالشرك هنا الشرك الأكبر! فقال: "إنّ الإمام إذا انتظر الداخل حلّ دمُه وخرج مِن الملة"! استعظم هذا الماوردي قال: ما يقصد الشافعي الشرك الأكبر![1] وإنما يقصد الشرك الأصغر، والصحيح في هذه المسألة – إنْ شاء الله تعالى – أنّ انتظار الداخل مِن قِبَل الإمام هو الصواب، وهو القول الثاني لأهل العلم – رحمهم الله – بشرط أنْ لا يَشُقّ على المأمومين؛ وبشرط أنْ لا يُمايز بين الناس، فإذا سمع صوت كبير ومسئول وربما سمع مثلًا صوته وعرف أنه داخل انتظره وبقية الناس ينتظرون! هذا لا يحل قطعًا، الصلاة ما فيها ممايزة، العبيد لله عزّ وجلّ جميع في المسجد، فإذا كان يمايز لقرابة أو لأنّ رجلًا له وجاهة أو إمارة أو تجارة يُمايز بين الناس! لا يحلّ هذا، أمّا إذا انتظره ليدخل أيًا كان الداخل بما لا يشقّ على المصلين؛ فالصحيح أنّه مستحب – إنْ شاء الله عزّ وجلّ –، الشاهد منه أنّ الشافعي رحمه الله يقصد الشرك الأصغر، ومراده أنّه التفتَ عن حال الصلاة بين يدي الله إلى التطلع إلى مَن يدخلون، هذا مراد الشافعي، وليس مرادُه أَمْرُ الشرك الأكبر، يقول الماوردي – عنهم وهو مِن فقهائهم – ظنّ أنّ الشافعي يقصد هذا! – عياذًا بالله –، فإذا وقع هذا منه ومِن أهل الفقه؛ فما بالك بغيره؟ فالواجب أنْ يُعرف أنّ هذه الألفاظ الشرعية تارةً يُراد بها الأكبر وتارةً يُراد بها الأصغر، ومِن هنا دخل الإشكال على الخوارج، فثمّةَ نصوص في الكفر هي نصوص في الكفر الأصغر حملوها على الكفر الأكبر، ومِن هنا طال النقاش في جملة مِن المسائل بسبب أنّ الخوارج يريدون أنْ يحملوها

(١) انظر الحاوي الكبير (٢/ ٣٢٠).

على الكفر الأكبر؛ وأهل العلم يقولون: هذه مِن الكفر الأصغر، والنموذج الذي أعطيتك ليس نموذجًا لخارجيّ! هذا من فقهاء الشافعي ليس خارجيًا! لكن الغرض أنّ الخطأ في فهم النص – في المراد – هل المعصية أو الذنب أو الشرك أو النفاق أو الكفر يراد به الأكبر أو الأصغر؟ هذا أمر تحديدُه إذا زلّت به القدم قد يُكفَّر المسلمُ! – نسأل الله العافية والسلامة –، ولهذا قال رحمه الله: "ويُتقرب إلى الله ببغضه" يعني المبتدع "وبالبراءة منه، ويُهجر ويُحتقر لأنه مستحق لهذا، وتجتنب عُرّتُه فهي أعدى مِن عرةِ الجرب" لأنها بمثابة الداء الذي ظهر في الأمة، وبه يُعلم أنّ البدعة على نوعين، بدعةٌ مكفرة فصاحبها يخرج مِن الملة، وبدعةٌ غير مكفرة فصاحبها مِن المسلمين وأحكامه أحكام المسلمين، لكن هو مِن جهة أنّه ضاهى الطريقة الشرعية ولبّس وشوّش على السُّنَّة ببدعته هذه هو مِن هذه الزاوية أسوأ مِن العاصي، لكن انتبه إلى أَمْر قد يقع فيه بعضُ طلبة العلم* فيظن أنّ كل كبيرة أسهل مِن كل بدعة! هذا خطأ، هناك بدع صغيرة، فالبدع الصغيرة هذه ليست مثل عظائم الذنوب – مثل قَتْل النفوس! –، فقَتْل النفس مثلًا ليس مثل إقامة المولد قطعًا! إقامة المولد بدعة؛ لكن ما نقول: إنّ مَن أقام المولد جُرْمُه أعظم مِن جُرْم من قتل النفس! إقامة المولد بدعة وصاحبه آثم؛ لكن قَتْلَ النفس دلت النصوص على أنّه هو الذي بَعْدَ الشرك، كما قال الشافعي رحمه الله تعالى: "وجدنا الدماءَ أعظمَ ما عُصيَ الله به بعد الشرك"(١)، وحديث ابن مسعود في هذا واضح رضي الله تعالى عنه(٢)، فالمقصود أنّ جنسَ البدعة أعظمُ مِن جنس المعصية، هذا المراد، أمّا أنْ تأتي وتأخذ بالتفاصيل فتقول: لو قَتَلَ ألفَ نفس لكان أسهل مِن كذا! هذا ليس مِن سبيل أهل العلم، نعم.

ويُقال بفضل خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو أفضلُ الخَلْق وأَخْيَرُهم بعد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ونُثَنّي بعده بالفاروق وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهما وزيرا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وضجيعاه في قبره، وجليساه في الجنة، ونُثَلِّثُ بذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم بذي الفضل والتقى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، ثم الباقين مِن العشرة

---

(١) الأم للشافعي (٦/ ٢٢٢).

(٢) الحديثُ المشار إليه رواه البخاري (٦٨٦٧)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

الذين أوجب لهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم الجنةَ، ونُخْلِصُ لكل رجل منهم مِن المحبة بقَدْر الذي أوجب لهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم مِن التفضيل، ثم لسائر أصحابه مِن بعدهم رضي الله عنهم أجمعين، ويُقال بفضلهم، ويُذْكَرُون بمحاسن أفعالهم، ونُمسك عن الخوض فيما شَجَر بينهم، فهم خِيار أهل الأرض بعد نبيّهم، اختارهم الله عزّ وجلّ لنبيّه، وجعلهم أنصارًا لدينه، فهم أئمة الدين وأعلام المسلمين رضي الله عليهم أجمعين.

.....

تكلم رحمه الله تعالى عن الصحابة رضي الله عنهم، والصحابة رضي الله عنهم سادة الأمة، وهم أسعد الناس بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[1] حتى قال بعض المفسرين: إنّ الآية خاصة بالصحابة؛ فهم المقصودون فقط بالآية، قال آخرون: إنّ الآية فيهم أصالةً بهم بلا شك لكن الأمة تَبَع لهم رضي الله عنهم، ومناقبهم وفضائلهم ثابتة في القرآن والسُّنَّة ولو لم يكن مِن ذلك إلّا ما سمّى الله به الصحابة فقط، فسمّاهم بالمهاجرين والأنصار وبالمفلحين والصادقين وسمّاهم بالمؤمنين حقًا؛ وأخبر تبارك وتعالى أنه رضي عنهم ورضوا عنه، وقسمهم إلى قسمين فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾[2] وهي الجنة، فهم موعودون بالجنة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، فالصحابة عند الأمة – كما قلنا – هم خيارُها وأفضلُها، لا يُخالف في هذا إلّا الحُثالات مِن الخوارج ومِن الرافضة أو مَن تأثر بهم، وتقدم الكلام في شرح الرسالة السابقة أنّ من خالف ولو في واحد منهم؛ فإنه يكون قد خرج عن السُّنَّة، أفضلُهم هو مَن جعله الله صاحبًا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم في القرآن: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾[3] المنصوص على صحبته بعينه هو أبو بكر رضي الله عنه، ولهذا قال أهل العلم: لو قال أحدٌ إنّ أبا بكر ليس صاحبَ الرسول لكان كافرًا، لأنه جحد الآية القرآنية، فهذه الآية أشد على الروافض مِن الصواعق المرسلة، لأنّ فيها ذِكْرُ الصحبة لأبي بكر تحديدًا، لأنه

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) الحديد: ١٠.

(٣) التوبة: ٤٠.

أخصّ الصحابة، أخصّ الناس بالصحبة أبو بكر رضي الله عنه، ولهذا مِن آيات الله – القدريّة العجيبة – أنّ أبا بكر لمّا توفي النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم صار يُسمى خليفة رسول الله، فلما توفي أبو بكر سُمّي عمرُ خليفةَ خليفةِ رسول الله ولم يسم خليفة رسول الله، حتى سُمّي بأمير المؤمنين، فانقطع اسم خليفة رسول الله بوفاة أبي بكر رضي الله عنه لأنه هو صاحبه، فأبو بكر خير الأمة بلا شك، قوله: "أَخْيَرُهم بعد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم" اعلم أنّ المراد أَخْيَرُهم بعد النبي في هذه الأمة وليس المراد إطلاقًا! لأنّ مما أجمع عليه أهل الإسلام أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل البشر، فأبو بكر أفضل البشر بعد النبيين، لكن قوله "أخيرهم بعد النبيين" يعني في هذه الأمة، "بعد أبي بكر رضي الله عنه عمر" رضي الله عنه، قال: "وهما وزيرا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وضجيعاه" يعني في قبره، هما المقبوران معه، ولم يُقبر معه سواهما رضي الله عنهما "وجليساه في الجنة" رضي الله تعالى عنهما جميعًا، "ونُثَلّث" في الفضل وفي الخلافة أيضًا، اعتقاد أنّ الخلافة فيه، "نُثلّث" أي نقول: الثالث، و"نُثَنّي": أي نقول الثاني، والثاني عمر، ونُثَلّث بعثمان رضي الله عنه، ونُرَبّع بعليّ رضي الله تعالى عنهم أجمعين، هؤلاء في الفضل أفضل الصحابة، ثم البقية مِن العشرة، وهم طلحة والزبير وسعد وسعيد بن زيد وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، هؤلاء أوجبَ لهم النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم الجنةَ في حديث واحد، لكن أوجب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليس معنى أوجب هو الذي أوجب! ولكنه أخبر بأنّ الله تعالى جعل لهم الجنة، لكن هؤلاء العشرة أفضل الصحابة، ولا يعني ذلك أنهم هم الذين يُشهد لهم وحدهم بالجنة! بل نقول قاعدة: "كل مَن شهد له بالنص بأنه مِن أهل الجنة؛ فإنا نشهد به، فنشهد للحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما ولفاطمة ولخديجة رضي الله تعالى عنهم لأنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم أخبرهم عنهم، ونشهد لبلال رضي الله عنه ولثابت بن قيس وكل مَن ورد فيه نص صحيح بأنه مِن أهل الجنة، قال: "ونُخْلِص المحبة لكل واحد منهم بقدر ماله مِن التفضيل" يعني إذا قلنا أفضلهم أبو بكر أحببناه أكثر مِن غيره، بعد أبي بكر عمر، نحب عمر بعد أبي بكر، وهكذا يتدرج حبُّهم بقدر فضْلِهم، بعد ذلك لسائر أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم أجمعين بدون أنْ يُستثنى منهم أحد رضي الله عنهم، ويُقال بفضلهم ويُذكرون بمحاسن أفعالهم مِن هجرتهم وجهادهم وبذلهم ونصرتهم، "ونُمسك ونكف عن الخوض في ما شجر ووقع بينهم مِن خلافات" رضي الله عنهم

سواء أكان مِن الأشياء التي كانت بينهم بالأقوال أو مما كان مِن الأفعال مِن الحرب وغيره، ونعتقد أنهم رضي الله عنهم على قسمين، قسم اجتهد وأراد الحق فأصابه فله أجران، وقسم اجتهد فلم يُوَفّق للحق ففاته أجرُ الصواب ونال أجر الاجتهاد رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، "ثم هم خيار أهل الأرض بعد نبيهم" يعني في الأمة، وخيار أهل الأرض مطلقًا بعد الأنبياء، ثم قال: "اختارهم الله لنبيه" صلّى الله عليه وسلّم، يعني أنّ الله تعالى قد قضى وقَدّر أنْ يكون في صحبة محمد هؤلاء الأخيار، وهذه الكلمة أصلها لابن مسعود رضي الله عنه قال في الصحابة: "قوم اختارهم الله تعالى لنبيه"(١) فهم مختارون اختيارًا مِن رب العالمين سبحانه وتعالى، "فهم أنصار محمد صلّى الله عليه وسلّم على دينه وهم أئمة الدين" فإليهم يُرجع، وقولُ الصحابي لهم قَدْرُه الكبير، وهم أعظمُ الناس فقهًا، وما كان أحد بعدهم – لا مِن المتقدمين ولا مِن المتأخرين – أعلمَ منهم البتّة، ومَن اعتقد ذلك بأحد منهم؛ فقد جَهِل وضلّ طريقَ الصواب، لا أحد أعلم وأفقه مِن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكيف يكون أفقه مِن أصحاب رسول الله أحدٌ ومعلمهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ هم خريجو هذه المدرسة الكريمة – المدرسة النبوية –، ثم هم أعلم الناس بلسان العرب، ثم هم شاهدوا التنزيل ورأوا الإسلام مطبقًا على أحسن وأكمل ما يكون، فلا يكون بعدهم بتاتًا أحدٌ أعلم منهم، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم في معاذ: «إنه يأتي يوم القيامة أمام العلماء برَتْوة»(٢) يعني برمية حَجَر متقدمًا على العلماء، وهو مِن علماء الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، نعم.

ولا نتركُ حضورَ الجمعة وصلاتها مع بَرّ هذه الأمة وفاجرها لازم؛ ما كان من البدعة بريئًا، فإنِ ابتدع ضلالة فلا صلاة خلفه، والجهاد في سبيل الله مع كل إمام عَدْل أو جائر.

.....

ذَكَرَ رحمه الله تعالى مسألة حضور الجمعة؛ وأنّ حضورَ الجمعة لازمٌ للمسلمين؛ وأنها تُصلى مع البرّ والفاجر، ولهذا صلاها الصحابة رضي الله عنهم مع الفجّار كالحَجّاج الذي ثبت عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه

---

(١) أخرجه ابن عبد البرّ في جامع بيان العلم وفضله (١١١٨).

(٢) صحيح. فضائل الصحابة (١٢٨٧) من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (١٠٩٠).

قال فيه: «يخرج في ثقيف كذّاب ومُبِيْر»[١] المُبِيْر هو المُهْلِك، والمراد بالكذاب المختار بن أبي عبيد الذي ادّعى النبوة، يقول: "حضورها لازمٌ حتى لو كان الإمام فاجرًا" فإنها تُصلى خلفه، كما صلى الصحابة رضي الله عنهم خلف هؤلاء مع ما هم فيه مِن الفجور، ثم تكلم عن الصلاة خلف المبتدع، الصلاة خلف المبتدع لأهل العلم فيها قولان، أمّا المبتدع بدعة مكفرة فهذا مثل ما هو معلوم بدعته مكفرةٌ؛ فلا تصح الصلاة خلفه، أمّا إذا كانت بدعته غير مكفرة فمِن أهل العلم مَن يقول إنه لا تُصلى الصلاة خلفه لأنّ الإمام منصب شريف لا يستحق هذا وأمثاله أنْ يتقدم بالمسلمين، ومِن أهل العلم مَن يقول: إنه مسلم مِن المسلمين وتُصلى الصلاة خلفه كما تُصلى الصلاة خلف الفاسق – ما دام مِن أهل الإسلام ولم يرتدَّ ببدعته –، فهو اختار رحمه الله تعالى الصلاةَ خلفه، لكن الصلاة خلف الإمام إذا كان إمامًا بالمسلمين – يعني حاكمًا – فإنها تُصلى خلفه حتى لو كان عنده ابتداع، قال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: "باب الصلاة خلف المفتون والمبتدع"[٢] وروى بسنده عن عُبيد الله بن عدي بن الخيار أنّه لما حُصِرَ عثمانُ رضي الله عنه في بيته قال له عُبيد الله بن عدي: إنك إمام عامة ويُصلي بنا إمام فتنة! لأنَّ الثوار قبحهم الله لمّا استولوا على المدينة وحصروا عثمان رضي الله عنه في بيته صلوا هم بالمسجد النبوي، فقال: يصلي بنا إمام فتنة؛ وأنت إمام عامة! فما ترى؟ يعني ماذا نفعل؟ قال: "يا ابن أخي؛ إنّ الصلاةَ أحسنُ ما عملتم، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم"[٣] فكأنّه يقول رضي الله عنه صلّ خلفه وإنْ كان على هذا النحو، وثبت عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال في الأئمة: «يصلون لكم؛ فإنْ أصابوا فلكم ولهم، وإنْ أخطئوا فلكم وعليهم»[٤]، فمِن هنا إذا كان وليّ أمرٍ للمسلمين فإنّ تَرْكَ الصلاة خلفه مِن الفتنة، ولأجل ذلك صلّى الصحابة رضي الله تعالى عنهم خلف الحَجّاج مع أنه ناصبيّ – والناصبيّ مبتدع – لأنه يجهر بسبّ علي رضي الله تعالى عنه، وعلي رضي الله عنه مِن الصحابة لا يجوز التعرض له، ومع ذلك صلوا خلفه، لأنّ تَرْكَ الصلاة خلف ولي

(١) صحيح مسلم (٢٥٤٥) من حديث أسماء رضي الله عنها مرفوعًا.

(٢) "باب إمامة المفتون والمبتدع". صحيح البخاري (١/ ١٤١).

(٣) صحيح البخاري (٦٩٥).

(٤) صحيح البخاري (٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

الأمر فيها فتنة كبيرة، أمّا مَن سواه مِن أئمة المساجد فالأمر فيه سَعَة؛ فإنك تستطيع أنْ تصلي في مسجد آخر وتترك هذا المسجد الذي فيه هذا الإمام المبتدع، بل حتى لو رأيت عدم الصلاة خلف إمام فاسق، كأنْ تعلم – نسأل الله العافية – أنَّ هذا الإمام يشرب الخمر، وتعرف هذا مِن كونك قريبًا له أو مِن خواصه، تقول: لن أصلّ خلفه لفسقه – على القول الذي يرى عدم الصلاة خلف الفاسق –، هناك مساجد أخرى، أمّا تَرْكُ الصلاة خلف ولي الأمر فالفتنة فيها ظاهرة؛ فتصلى خلفهم الصلوات، ولهذا قال: "والجهاد في سبيل الله مع كل إمامٍ عَدْلٍ أو جائرٍ وكذلك الحجّ" الجهادُ الأصلُ أنَّ الذي يقيمه هم الأئمة، ولا يقام الجهاد إلّا بإذن الإمام، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم في الإمام: «الإمام جُنّة يُقاتل مِن ورائه»[1]، هذا هو الأصل، الأصلُ أنّ الإمام هو الذي يقود الجهاد ويأذن به، هذا المعروف يا أخوة عند أهل العلم، وهذا المُقَرّر كما ترى في كتب العقيدة، ولهذا الإمام مسلم أجزل الله له المثوبة ونَوّر عليه قبره؛ في كتاب الإمارة لمّا انتهت أحاديث الإمارة ذَكَر أحاديث الجهاد داخل كتاب الإمارة، لأنّ الجهاد يكون مع الأمراء، كما أنّ الحجّ يُحجّ خلف الأمراء، يعني الحجّ لا يشعر بعض الناس به! الحجّ لا يصلح أنْ يُقام الحجّ إلّا مع أمير، لابُدّ أنْ يُقام الحجّ مع أمير، فمثلًا هنا يقيم الحجّ المَلِكُ أو مَن يُنيبه، ولا يُقال حُجّوا هكذا، الحجُّ فيه جملة مِن النوائب، ولهذا مجموعة كبيرة مِن القضاة في الحجّ يحكمون، أتظن هؤلاء الذين يموتون تُؤخذ جثثُهم وهكذا! لابُدّ مِن كتابة صكّ بأمْرِ وفاته وتحديد أنّ له دِيَة أو تسبب في قَتْل نفسه، الحج فيه جملة مِن النوازل، فلابُدّ أنْ يُقاد الحجّ، كما أنه يُقاد الحجّ؛ فالجهاد يُقاد، وإذا لم يُقَد الجهاد مِن قبل الأمراء فالذي يحدث في أحيان كثيرة أنه إذا وُجِد الشغب والإشكال بين المجاهدين أنه لا يُوجد أحدٌ يستطيع أنْ يُنهي الخصمةَ بينهم – وكل معه سلاحه! – فيسهل بينهم القتال ويصعب جدًا أنْ يُوقف القتال إذا دَبّ بينهم، بينما إذا وُجِد حاكمٌ فإنه يقول: أنت يا فلان أساس للفتنة؛ ارجع واترك الجهاد أو أنت يا فلان انتقل إلى موقع كذا، لأنّ الجهاد يجب أنْ يُدار من قِبَل الأئمة، وهم الذين يأذنون به، هذا هو وضع الجهاد في كتب العقيدة وعند أهل السُّنَّة وهو هذا الذي يُقررونه، ولهذا قال: "والجهاد في سبيل الله مع كل إمام" يأتي أَمْر، الإمام قد يكون فاجرًا قال: "عَدْل أو جائر" حتى لو كان جائرًا لا يسقط الجهاد، كما الحجّ، لا يسقط الحجّ إذا كان الإمام جائرًا، فلابُدّ مِن إقامة

(١) صحيح البخاري (٢٩٥٧)، صحيح مسلم (١٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

هذه الشعائر العظيمة لله عزّ وجلّ وعدم تَرْكِها تضيع في الأمة، ولهذا لَزِمَ أداؤها خلف هؤلاء وإنْ كانوا فجرة حتى لا تتعطل كما وضح ذلك شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في منهاج السُّنَّة توضيحًا شافيًا، وقال: إنّ كون الإنسان يحجّ مع رفقةٍ فيها معصية أو يجاهد مع أناسٍ عندهم معصية يقول هذا الأمر لا يضره، فعليهم ذنبُهم وهو له طاعته، ولهذا لمّا قيل للحسن: "إنّ هؤلاء الأئمة يجاهدون ونحن نجاهد معهم – وهم إنما يجاهدون للدنيا –! قال: فجاهد أنت على نصيبك مِن الآخرة ودع نصيبهم هم مِن الدنيا، يعني لا تترك الجهاد لأجل كونهم يقودونه وأنت تدّعي عليهم أنّهم لا يريدون إلّا الدنيا! فالأصل أنّ الجهاد والحجّ والجمعة والعيدين إنما يُقيمها الأئمة، كما كان الحال زمن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وزمن الصحابة رضي الله عنهم؛ أو مَن يُنيبه الإمام، بأنْ يُنيب الإمامُ أحدًا في هذه المناصب التي في أصلها مرتبطةٌ بالإمام، نعم.

وإقصارُ الصلاة في الأسفار، التخييرُ فيه بين الصيام والإفطار في الأسفار، إنْ شاء صام وإنْ شاء أفطر.

.....

هذه مسألة فقهية ما نُطيل فيها، يقول: "الصلاة" جَزَمَ بأنَّ الصلاة تُقصر في السفر، لأنَّ هذه سُنّة السفر، قال: "أمّا الصيام" فَمِن أهل العلم مَن يرى أنّ الصيام؛ الأفضل في السفر هو الفطر، ومنهم مَن يقول إنَّ الأفضل هو الصيام إذا كان قادرًا ومُطيقًا، والكلام فيه يطول، ولأهل العلم فيها تفاصيل، بعضهم يقول في حال المشقة الفطر أفضل وفي حال عدم المشقة الصوم أفضل، وبعضهم يقول بل الفطر مطلقًا لأنَّها رخصة إلى غير ذلك مِن هذه المسائل، لِمَ ذَكَرَ مثل هذه المسائل؟ لِيُبَيِّنَ أنّ هذه المسائل هي مرتبطةٌ بالاعتقاد، وأنَّ السُّنّيّ كما أنَّه عنده مسائل يعتقدها فإنّه ذو عمل؛ ويُحافظ حتى على السُّنَن في مثل هذه؛ وأنَّها جزء مِن العمل، لأننا قلنا الإيمان قول واعتقاد وعمل، فهذه مِن العمل الداخل في الإيمان نعم.

هذه مقالاتٌ وأفعالٌ اجتمع عليها الماضون الأوّلون مِن أئمة الهدى، وبتوفيق الله اعتصمَ بها التابعون قدوةً ورضى، وجانبوا التكلف فيما كُفوا، فسُدّدوا بعون الله ووُفّقوا، لم يرغبوا عن الاتّباع فيُقَصِّروا، ولم يُجاوزوه تَزَيُّدًا فيعتدوا، فنحن بالله واثقون وعليه متوكلون وإليه في اتّباع آثارهم راغبون.

.....

في ختامها بَيّن أنَّ هذه المقالات يقول ليست مني! أو أنا صنّفْتُها اجتهادًا! بل هذه مسائل إجماع، اجتمع عليها الماضون الأولون مِن أئمة الهدى بدءًا مِن الصحابة رضي الله عنهم فمَن بعدهم، فمراده أنَّ هذه المسائل مسائل إجماع إلّا ما ذكرنا مِن الاختيارات الفقهية كما تقدم، الاختيارات الفقهية هو إمام فقيه يعلم أنَّ لأهل العلم فيها كلام، لكن المقصود المسائل العظام هذه، أو نفس المسائل الفقهية كونها مِن مسائل العمل الداخلة في الإيمان، فأهل الحق جانبوا التكلفَ، قال صلّى الله عليه وسلّم: «نُهينا عن التكلف»(١)، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾(٢) فلم نُكَلّف ما كُفينا، والنصوص بَيّنَت لنا، فلسنا بحاجة إلى أنْ نتوغل في الغيبيات وأنْ نُبالغ في المجادِلات! فقد كُفينا ولله الحمد بتبيين النصوص، قال: "فهؤلاء سُددوا ووُفّقُوا ولم يرغبوا عن الاتباع فيُقَصّروا" الرغبة عن الشيء هو الزهد فيه وعدم رفع الرأس به وعدم الاهتمام به، فهؤلاء هم المُقَصّرون وهم الجفاة، قال: "ولم يُجاوزوه تَزَيّدًا فيعتدوا" المجاوزة هي الغلو، فأهل السُّنَّة وسط بين فِعْل الغلاة كالخوارج وبين فِعْل المتساهلين كالمرجئة، قال: "فنحن بالله واثقون وعليه متوكلون وإليه باتباع آثاره راغبون".

فهذا شرحُ السُّنَّة تحريتُ كشْفَها، وأوضحتُها، فمَن وَفَّقَه الله للقيام بما أَبَنْتُه مع معونته له بالقيام على أداء فرائضه؛ بالاحتياط بالنجاسات، وإسباغ الطهارة على الطاعات، وأداء الصلوات على الاستطاعات، وإيتاء الزكاة على أهل الجِدَات، والحجّ على أهل الجِدَة والاستطاعات، وصيام شهر رمضان لأهل الصِّحَّات، وخمس صلوات سَنّها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن بعد الصلوات، صلاة الوتر في كل ليلة وركعتا الفجر وصلاة الفطر والنحر وصلاة كسوف الشمس والقمر إذا نزل وصلاة الاستسقاء متى وجب.

.....

(١) صحيح البخاري (٧٢٩٣) عن عمر موقوفًا – وليس مرفوعًا! –.

(٢) ص: ٨٦.

يقول: "هذا المتقدم شرح السُّنَّة، مَن وَفَّقَه الله لِمَا تقدم مع المعونة على أداء الفرائض" وهي الواجبات، "في الاحتياط في النجاسات" لأنّ النجاسة إذا باشرت بالجسد أو البقعة أو الثوب لم تصح الصلاة، "وإسباغ الطهارة على الطاعات وأداء الصلوات على الاستطاعات،" وهكذا ما يتعلق بإيتاء "الزكاة على أهل الجِدَات" وهم القادرون الذين لديهم الجِدَات، ويحول الحول على مال الواحد منهم ويكون نصابًا، "والحج على أهل الجدة" أيضًا أهل الغنى والقدرة، "والاستطاعات، وصيام شهر رمضان أيضًا لأهل الصِّحَّات" يعني ممن هم أصحاء غير مرضى، ثم ذكر خمس صلوات مِن السُّنَن ليُبين أنَّ أهل السُّنَّة يُحافظون حتى على السُّنَن، وذَكَر منه صلاة الوتر وهي مِن أعظمها ومِن أهمها لأنها مِن صلاة الليل، وهكذا ركعتا الفجر، وهما الراتبتان اللتان تسبقان الصلاة الفريضة، وكذا صلاة العيدين – الفطر والنحر –، وهكذا كسوف الشمس والقمر، وهكذا صلاة الاستسقاء، يقصد أنَّ المسلم يعتقد ويلتزم الفرائض ويلاحظ أيضًا أَمْرَ السنن، نعم.

واجتنابُ المحارم، والاحترازُ مِن النميمة والكذب والغيبة والبغي بغير الحق وأنْ يقول على الله ما لم يعلم، كل هذه كبائرُ محرمات.

.....

تكلم بعد ذلك عن أنَّ السُّنّي كما أنَّه يلتزم الطاعات الواجبة ويحافظ على السُّنَن؛ فإنَّه أيضًا يجتنب المحرمات، ومِن أعظم ذلك هذه المحرمات، وذَكَرَ شيئًا مِن هذه المحرمات لأنَّها تنتشر، كالنميمة – والعياذ بالله – كأن يتسمع لقول هذا ويرفعه! يقول: يا فلان تكلم هذا فيك؛ وقال فيك كذا وكذا، ثم مِن قِلّة فقهه ودرايته يقول: أنا كاذب! أنا ما كذبت! أنا صادق عليه، وإذا كنت صادقًا؟ إذا اغتاب هو فلا تنُمَّ أنت، وإنْ كان الذي تنُمُّ إليه أخاك أو أباك! دافع عن أخيك المسلم وذُبَّ عن عرضه، أمّا أنْ تَصْمُتْ وتَجْبُن ثم تجمع إلى هذا النميمة فتنقله ثم يتضاربان أو يقع بينهما ما يقع مِن الوحشة والتباغض بسبب نميمتك! فهذا مما ثبت عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنّ العبد يُعَذّب فيه بقبره، قال صلّى الله عليه وسلّم في رجلين: «إنهما لَيُعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنَّه كبير، أمّا أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأمّا الآخر فكان لا يستنزه مِن

بوله»[(١)]، فالنميمة مِن أسباب العذاب في القبر، قال صلّى الله عليه وسلّم: «لا يدخل الجنة نمام»[(٢)] يعني أنه يُحجب عن دخول الجنة في أول الأمر – إنْ كان من العصاة – الذين تقدم أنه ما دام مسلمًا فإنّه يكون مَرَدّه إلى الجنة، وهكذا الكذب – والعياذ بالله –، والغيبة والبغي بغير الحق، وهكذا الكلام بلا علم، انظر ماذا فعل القول على الله بلا علم! انظر ماذا فعل في الناس! يتكلم أهل الصوت الرفيع المنتشر الآن أغلبهم ليسوا مِن أهل العلم للأسف الشديد، ملاحظة: أنّ أهل الصوت العالي ومَن ينتشر قولُهم في الناس ليسوا مِن أهل العلم! بل لم يجثو ليتعلموا العلم! بل حسب الواحد منهم أنْ يحمل شهادةً في هذه التخصصات المعاصرة الآن مِن طِبّ وهندسة وفَلَك ليَجْعَل نفسَه مُفتيًا للمسلمين ويتابعه الملايين! ويخوض كثير منهم في المسائل العظام، إنما يخوضون في نوازل الأمة، ثم لو قُلْتَ له اقسم لي هذه المسألة مِن الفرائض: هَلَكَ هالكٌ عن زوجة وعن ثلاث بنات وابن؟ قال: أنا ما أقول على الله بلا علم! كيف أتكلم؟ طيب مسألة مِن مسائل الطهارة، افتني في مسألة المسح على الخفين – حالة من حالات المسح على الخفين – قال: لا تسألني عن هذه المسائل! أنا لست متخصصًا في الشرع، اسأل الفقهاء، يالله العجب! والسياسة الشرعية مِن أدَق وأصعب العلوم الشرعية لِمَن عَلِمَها أو عَرَفَها، ومِن أصعب ما فيها أنك قد تقرأها في الكتب ثم التنزيل على الوقائع مِن أصعب ما يكون لا يتمكن منه إلّا الراسخون، فيخوضون في أصعب العلوم – وهي السياسة الشرعية – ثم إذا سُئِل أحد عن مسائل في الوضوء وفي الطهارة يقول: أنا ما أتكلم بلا علم! فالقول على الله بلا عِلْم مِن أعظم الكبائر ومِن أفحشها وأشدها، والعجب العجاب أنّ أحدًا لو تكلم في الطب أو في الهندسة بلا عِلْم لضجت الدنيا كلها احتجاجًا عليه؛ فإذا تكلم بأمور الشرع بلا عِلْم لم يُكترث بذلك ولم يُرفع به رأس! وقيل هذا رأي مِن الآراء! وهل الدين رأي؟؟ الدين ليس رأيًا! الدين دليل، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "والعلم معرفة الهدى بدليله"[(٣)]، هذا ضابط العلم، أنْ تعرف الهدى، يعني الحق، ولو عرفت الباطل وعرفت ما يقوله الشيوعيون والزنادقة والملاحدة والمعتزلة والجهمية، يا أخي هذا ليس علمًا، هذا ليس علمًا

(١) صحيح مسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) صحيح مسلم (١٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) نونية ابن القيم (ص: ٩٩).

إلّا إنْ قَدِرْتَ على الرّدّ عليه، أمّا رأي عمرو بن عمير علم؟ أو رأي ماركس علم؟ مَن يقول هذا علم؟ العلم معرفة الهدى لا الضلال! معرفة الهدى بدليله بأنْ تعرف الحق مع الدليل، هذا هو العلم، أمّا هذه الشبهات والضلالات فالعلم في ردها لا في معرفتها! فالذي يتفاخر بأنّ لديه كتب المعتزلة وكتب الملاحدة ثم هو مِن أجهل عباد الله لا يعرف الرَّدّ عليها، تتزيد بهاذا؟ تتزيد بترهات الأولين والآخرين مِن أهل الضلال والكفر والفجور والبدع؟ ثم تضعها عندك وأنت لا تستطيع أنْ تدفع عن نفسك شبهاتِها؟ فالحاصل أنّ القول على الله بلا علم مِن أشرّ ما يكون، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله في العلم: "والعلم معرفة الهدى بدليله ... ما ذاك والتقليد مستويان"(١) يعني يقول: المقلد يكون ليس مِن أهل العلم! "إذ أجمع العلماء أنّ مقلدًا في الناس للناس والأعمى هما أخوان"(٢) يقول: المقلد لا يوصف بالعالم، لأنّ العلم هو أنْ تعرف الهدى لكن مع الدليل، فإنْ عرفت الهدى واتبعته فأنت مقلد، لكن لا تسم نفسك عالمًا! فكيف بمَن لم يتعلم أصلًا، وخاض فيما لا علم له به، وخاض في مسائل فيها أمور الولاة وفيها أمور الدماء وفيها أمور التحريض للشعوب على أمور معينة بالإقدام بالإحجام ولا يدر بالسياسة الشرعية! لم يفتح كتابًا في الفقه ولا في السياسة الشرعية! أليس هذا مِن القول بلا علم؟ لا شك أنّ هذا مِن القول بلا علم، وأعظم مِن هذا أنْ يتحدثوا عن معاني القرآن ويربطونها بأمورهم هذه، ثم يتحدث فيقول أنا عندي دليل! حتى سمعت مَن يقول: إنّ الكفر إذا ارتدّ الإنسان ليس في الشرع ما يُوجب قتلَه! لأنّ الله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٣)، يعني إلى هذا الحدّ بلغت الأمور في الجهل والاستدلال على هذه الضلالات بالدليل القرآني! نعم، لأنّ هذا لا يدري ولم يذق طعم العلم، العتب ليس على هؤلاء، العتب على الناس الذين يأتون إلى مَن إذا سُئِل مَن أقرأك القرآن؟ على مَن تعلمت مِن أهل العلم؟ يقول: تعلمت أنا في الغرب، درست في فرنسا وأمريكا! يالله العجب! كيف تأخذون عن هذا يا ناس! رجل يقول إنه لم يتعلم العلم! حسب الواحد منهم أنه أخذ شهادة في الفلسفة أو في التقنية أو في الطبّ أو في الهندسة، ما الذي جعل الناس تقدم على هذا وتحجم عن العلماء؟

(١) نونية ابن القيم (ص: ٩٩).

(٢) نونية ابن القيم (ص: ٩٩).

(٣) الكهف: ٢٩.

هو هذا الإعلام المجرم الذي صرف همم الناس عن أهل العلم الحقيقيين ووجههم إلى أهل الجهالات والضلالات، لكن الإنسان الذي يعلم أنّ ذمته لا تبرأ إلّا بسؤال أهل العلم عليه أنْ يتقي الله، فنصّ رحمه الله على أنّ مِن المحارم التي يجتنبها السُّنّي في خاتمة هذه العقيدة أنْ يترك القول على الله بلا علم، قال كل هذه كبائر محرمات، هي والنميمة وكل ما ذكر، فالواجب أنْ يَكُفّ السُّنّي عن المحرم؛ وأنْ يلتزم الاعتقاد الحق؛ وأنّ يعمل على ما أوجب الله تعالى عليه مِن الواجبات؛ ولا يغفل عن هذه السُّنَن، لأنّ هذه السُّنَن ترقع النقص الموجود في الفرائض.

والتحلي في المكاسب والمطاعم والمحارم والمشارب والملابس، واجتناب الشهوات؛ فإنها داعيةٌ لركوب المحرمات، فمَن رعى حولَ الحمى؛ فإنه يوشك أنْ يقع في الحمى، فمَن يُسّر لهذا فإنه مِن الدين على هدى ومِن الرحمة على رجا.

.....

قال بعد ذلك: "التحري في المكاسب" انتبه يا أخي لراتبك، انتبه إلى ما يدخل عليك، انتبه إلى ما تُطْعِم به هؤلاء الذرية وزوجتك، إذا شككت في أَمْر واعتقدت أنه مَحَلّ إشكال يا أخي تخلص منه؛ فإنّ رزق الله عزّ وجلّ واسع، هكذا المكاسب من البيوع! هكذا هذه المساهمات وهذه الألاعيب الآن الحاصلة في البنوك! انتبه إلى ما تُدخله في جوفك، احرص على الحلال، وإذا تشككت فيه فاسأل عنه مَن يُزيل عنك الشبهة بأنْ يقول إنه حرام أو يقول إنه حلال فتبرأ ذمتُك بشرط أنْ يكون مِن أهل العلم الذين يسوغ لهم الفتوى، ولا تستسهل أَمْرَ المكاسب هذه وأمر المطاعم وهكذا الملابس والمشارب وكل ما تقتنيه، فانتبه إلى أمر الحلال، فإنّ السُّنّي بتقواه لله عزّ وجلّ يتورع، وإلّا جَلْبُ المالِ طرقُه كثيرة، ولكن في الحلال – ولله الحمد – غُنْيَة عن الحرام، وفي الحلال البركة التي يجعلها الله تبارك وتعالى، فأمّا دروب الحرام الآن في البنوك وفي المؤسسات كثيرة جدًا، فاجتنب هذه المحرمات؛ وإنْ كَثُرَ المتهافتون عليه، ثم قال: "واجتناب الشهوات؛ فإنها داعية لركوب المحرمات، فمَن رعى حول الحمى فإنه يوشك أنْ يقع في الحمى" اجتنب الشهوات، وهي الشهوات التي تدعو إلى المحرمات، ومِن أعظم ذلك وأخطره وأكثر ما انتشر في المسلمين اليوم النظرُ إلى

صور النساء، فإنما هذا أمره عجب، والله إنّ العاقل ليتعجب مِن أناس مِن أهل الدين والخير والصلاح كيف استسهلوا هذا! كيف استسهلوا النظر إلى صور النساء! سبحان الله العظيم! لو تسأله ما حُكْمُ النظر إلى المرأة الأجنبية قال: حرام؛ والدليل والدليل؛ ثم هو ينظر إليها! كأنما الناس ضربوا في عقولهم، استسهل كثير منهم صور النساء مع ما فيها مِن الفتنة العظيمة، النظر إلى هؤلاء النساء سَهْم مِن سِهَام إبليس مسوم، إذا نظرت إليها وهي بكامل زينتها ما الذي يحصل في قلبك؟ ما الذي يترتب عليه؟ كم مِن نظرت تسببت في الفاحشة؟ ولهذا مِن حكمة الحكيم القدير أنْ قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾(١)، أمّا الفاحشة نفسها فإذا وصلت إليها – نسأل الله العافية – ، لكن مما يقربك من الفواحش هذا النظر، وتكلمت في الدرس السابق عن هذه البلية التي يُلِي بها الناس بقوله إني أتابع الأخبار؛ وإني حريص على الأخبار! وكأنه لن يُتابع الأخبار حتى يرى الصور المحرمة، تستطيع متابعة الأخبار دون النظر إلى الصور المحرمة، فالصور المحرمة خطيرة جدًا، وهكذا ما تساهل به الناس أَمْرُ القنوات الفضائية التي من نحو عشرين سَنَة ما كان أحد يتحدث ويتصور أنّ أهل الدين سيجثون عندها ويتفرجون عليها، الآن انظر إلى كثرة مَن يقول في قناة العربية و"الإم بي سي" القنوات الفاسدة! ماذا تريد بالفاسدة! يالله العجب! كيف تدخلها في بيتك وتنظر إليها امرأتك وأطفالك! قنوات مثل هذه القنوات ماذا تريد منها؟ فاسدة! هي مِن أفسد ما يكون، وليست وحدها، فاتقوا الله في هذه الأبصار، فإنّ النظر مِن أعظم ما سبب فسادَ القلوب، ولو أنّ الناظر يخفى عليه الحكم لربما عُذِر، لكن الإشكال أنه يعلم أنّ هذا محرم، ثم يأتيه الشيطان بمثل هذه الحيل، فلنتق الله عزّ وجلّ في هذه الأسماع وهذه الأبصار، ولنعلم أنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾(٢)، فالأمور خطيرة، فحاصل الأمر أنّ العقيدة الحقّة تحمل صاحبها في نهاية المطاف على تقوى الله عزّ وجلّ، في منطقه؛ في مأكله؛ في مشربه؛ في علاقاته بمَن حوله مِن أقاربه مِن جيرانه مِن والديه بالمقام الأول مِن ذوي رحمه؛ في أعظم علاقة له بالله عزّ وجلّ، هذه هي الفائدة مِن العقيدة، أمّا أنْ تعرف العقيدة وتأخذ بها الكتب ثم لا يتغير وضعك! فأنت كما قالت أم الدرداء رضي الله عنها لشاب كان يتردد عليها

(١) الأنعام: ١٥١.

(٢) الإسراء: ٣٦.

ويسألها عن العلم فقالت مرة: "يا ابن أخي أتعمل بما تعلم؟" قال: "لا"، يجمع منها العلم! قالت: "لا تُكْثِر مِن حُجَج الله علينا وعليك"(١)، هذه حجج، هؤلاء الأئمة الأخيار – رحمة الله تعالى علينا وعليهم – الذين وضعوا هذه العقيدة وجعلوها للأمة؛ ودعوا في آخرها؛ وأبدوا في أولها – أنهم حريصون على الأمة – أبقى الله لهم أجرها، فلا يكن حظنا مجرد السمع! وليكن حظنا منها التطبيق والانتفاع، فإنّ العقيدة قول واعتقاد وعمل، والعمل يكون بما بترك ما حرّم الله وأداء ما أوجبه.

وفقنا اللهُ وإياك إلى سبيله الأقوم بمَنّه الجزيل الأقدم؛ وجلاله العلي الأكرم؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وعلى مَن قرأ علينا السلام، ولا ينال سلامُ الله الضالين، والحمد لله رب العالمين.

.....

كأنما رحمه الله يوجهها لِمَن بعده، لاحظ، يقول رحمه الله تعالى: "والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" يقوله لِمَن سأله؛ وعلى "مَن قرأ علينا السلام" فنسأل الله أنْ يُسلمه ويغفر له ويرحمه وأئمة السلف أجمعين، لن نطيل، لأنّ الأخوة عندهم دراسة واختبارات.

– يسأل أكثرُ مِن أخ عن تكفير مَن يَسُبّ الصحابة.

أمّا مَن سَبّهم بالعموم – فكما قال شيخ الإسلام – مَن سَبّهم بالعموم؛ فإنه يكفر بالإجماع لأنه مُكَذّب للقرآن، ومَن تَعَرّض لبعضهم باتهامه مثلًا بحب الدنيا أو بالجبن ونحوه؛ فإنه يُؤدب أدبًا يزجره ولا يكون به كافرًا.

– يقول: طلبتْ مني أختي أنْ أذهبَ بها للتقدم لوظيفة وأنا أعلم ما كانت عليه من مشاكل مع والدتي؛ فقلت: والله لن يوفقك! هل أنا تأليتُ على الله؟

نعم، لا تحلف على الله بمثل هذا الغيب أبدًا، وهي بحاجة منك إلى موعظة أنْ تراعي وضعَ والدتها، أمّا أنْ تحلف على غيب أنّ الله لن يوفقها؛ فهذا منك خطأ.

---

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي – من كلام عائشة رضي الله عنها – (ص: ١٥).

– وهذا أيضًا يسأل عن سَبِّ الصحابة؛ وقلنا ما يتعلق به.

– يقول: الذين قالوا: إنّ الإيمان قول واعتقاد وعمل، وقالوا: العمل عمل القلب وأعمال الجوارح، المباني أربعة، ذِكْرُ ذلك خلاف مُعْتَبَر عند أهل السُّنَّة، هل قولهم هذا موافق لأهل السُّنَّة؟

القول بترك المباني الأربعة لا يعني – وهذه مسألة مهمة جدًا – إذا قال أحد بعدم التكفير بالمباني الأربعة؛ هل معنى ذلك أنه يقول: إنّ الإيمان قول واعتقاد؟ لا، يقول: العمل؛ لابُدّ مِن شيء مِن العمل، فكونه يترك شيئًا من المباني الأربعة لا يعني أنْ يترك العمل بالكلية! فهذا مِن الأمور المهمة، ولهذا وضح هذا شيخ الإسلام رحمه الله تعالى وبَيّن أنّ ثمّة فرقًا بين مَن لا يُكَفّر تاركَ الصلاة وبين مَن يقول بأنّ العمل بالكلية لو تَرَكَه لا يَكْفُرُ! فيه فَرْقٌ، ليس مَن قال إنّ تَرْكَ الصلاة ليس بكفر؛ لا يقول إنّ ترك العمل بالكلية لا يكون كفرًا! فيه فَرْقٌ، يقول شيخ الإسلام: يستحيل أنْ يوجد مَن يُقِرّ أنّ الله تعالى ربه ثم لم يسجد لله تعالى سجدة! ولم يركع لله ركعة! يقول: ..... [1] هذا أمرٌ غير ممكن، يعني لا يمكن أنْ يُقِرّ أنّ الله تعالى ربُّه وأنّ الله أوجب هذا ثم لا يكون منه عمل!

هذا والله أعلم، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وآله وصحبه

(١) جملة غير مفهومة.